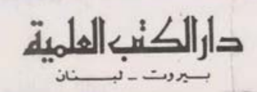
الأعلام من الأدباء والشعراء

ميّ زيادة

أديبة الشوق والحنين

تأليف
غريد الشيخ



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



تأليف

غريد الشيخ



الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/ ١٢١٢/٠٠ - ٦٠٢١٣٣/ ٩٦١١/٠٠



المقدمة

«أصحيح أنك لم تهتدي بعد إلى صورتي فهاكها، استحضري فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندي، كما يقول الشعراء، أو كالمسك كما يقول متيم العامرية، وضعي عليها طابعاً سديمياً ـ فليسمح لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض ـ من وجد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي، وعطش روحي لا يرتوي يرافق أولئك جميعاً استعداد كبير للطرب والسرور، واستعداد أكبر للشجن والألم ـ وهذا هو الغالب دوماً ـ وأطلقي على هذا المجموع اسم مي تري من يساجلك الساعة قلمها».

هذه هي مي زيادة كما وصفت نفسها بقلمها الرشيق باختصار شديد.. مي التي عاشت عمرها وماتت وهي في شوق وحنين فكري لا ينتهيان.

في الناصرة وحيث عاش السيد المسيح حياته، ولدت مي زيادة أو ماري كما سماها أبواها عام ١٨٨٦ ـ لأب ماروني وأم أرثوذكسية، مما جعلها بعيدة عن أي تعصب لمذهب أو دين.

وانتقلت مي مع أسرتها إلى لبنان ـ قضاء كسروان وأدخلت مدرسة الراهبات الأجنبيات بعين طورة، وتعلمت القليل من العربية والكثير من الفرنسية. وبدأت تنمو مواهب الفتاة الصغيرة التي شقت طريقها في البدية بحسن إلقائها وبراعتها في الإنشاء ثم ظهرت كخطيبة لبنانية ناشئة.. وأكملت مي تحصيلها العلمي واهتمامها بالتاريخ الإسلامي والفلسفة مما جعلها تحب الشرق حبًّاً جمًّاً على الرغم من ثقافتها الأوروبية الواسعة.

كانت مي زيادة ملفتة للنظر لكل من تقع عينه عليها من أصدقائها فكانوا يحتارون في وصفها فهي رغم الجمال الذي تحسه عندما تراها فإن هذا الجمال ليس هو المتعارف عليه بل هو أبعد وأعمق من هذا فهذه هدى شعراوي تصفها فتوجز ولكنها تعطينا المعنى الذي نحتاجه لنعرف شاعرتنا وأديبتنا.

«لم تكن مي على وسامتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها وروحها أجمل من صورتها، فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة ولا أضأل نصيباً من الجاذبية.

لقد كان يجمّل مياً بين الجميلات ويزينها بينهن شيء خفي، وسر مستبهم، لعله هو الذي حيّر الشاعر فقال:

شــيء بــه فتــن الــورى غيــر أنــه

يـدعـى الجمـال ولسـت أدري مـا هـو

وليس في الأمر عندي سر مستغلق ولا خفي مبهم فسر جمال مي كان في روحها، والجمال المعنوي الروحي هو ضرب من الجمال

يسمو على كل جمال»[1].

وكان أكثر ما يلفت من مي زيادة هو إحساسك بهذا الذكاء المتوقد المشع دائماً من عينيها ومن حسن تصرفها ولباقتها المعهودة: تقول صديقتها أيمى خير: «كانت كل حاسة من حواسها، أو جارحة من جوارحها تنم عن ذلك الذكاء، فعيناها اللامعتان، وتعبيرها الحار ولطف إشارتها وحسن حديثها كل أولئك نمَّ عن ذكائها كما ينم ريح المسك على المسك. تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها وتنقلك إلى صفها ولو كنت من المحلفين في الخصومة، الممعنين في المجادلة والمعارضة وكان فيها إلى جانب علمها وفنها جوانب كثيرة وحواش رقيقة من اللطف والدعة واللين والرقة، فكانت تحترم أمها وأباها، وتقف أمامهما كما يقف الطفل في حضرة والديه»[2].

والشاعر المهجري شفيق المعلوف يصورها بقوله:

بنت الجبال، ربيبة الهرم
هيهات يجهل اسمها حي
لم نلف سحراً سال من قلم
إلا هتفنا: هذه مي

وها هو الدكتور منصور فهمي يصورها بصورة دقيقة في محاضرة له عنها بمعهد الدراسات العربية سنة ١٩٥٤ فيقول:

«... فهي فتاة ربعة بعنة، وجهها الصبوح أقرب إلى الاستدارة،

---

(١) مي أديبة الشرق والعروبة / محمد حسن.
(٢) مي أديبة الشرق والعروبة / محمد حسن.

وبشرتها بيضاء من غير سوء، وتقاسيمها مليحة مشرقة، وعيناها دعجاوان واسعتان سبلاوان، يشع فيهما بريق الذكاء ويعلوهما حاجبان يمتد كلاهما عريضاً أسود من أول العين إلى آخرها في تقوس منسجم دون أن يقتربا أو يتقاربا من أعلى أنف أزلف جميل وفمها يزدان بشفتين رقيقتين قرمزيتين لا يمتدن في خديها الريانين إلا بما يتجاوز قليلاً نهاية الأنف. وهي ذات جيد مليء لا يعيبه قصر، وقد يزينه عقد قاني الحمرة إن لبست ثياباً قاتمة اللون. وأسنانها بيضاء فيها فلج، وفي الغالب لا تفارق الابتسامة محياها. وشعرها أسود فاحم لامع. وقد تقترن أحاديثها بحركات ناعمة متواصلة عند رأسها وجيدها فتبدو هذه الحركات خفيفة كأنها نبرات من الضحك الهادىء ينسجم مع البسمات المتواصلة الرشيقة تزيدها ظرفاً وتكسبها لعوبية وسحراً»[1].

وقد كتب عنها سلامة موسى يوم لم تكن بعدُ في ذروة شهرتها:

«مي أديبة سورية المولد مصرية النشأة والتربية عربية الوطن، تكتب للشرق بعقلها، وللغرب مكان في قلبها. ومركز مي في الأدب العربي فريد في وقتنا الحاضر فهي امرأة تكتب لرجال. وليس معنى هذا أن النساء لا يقرأن مؤلفاتها، فربما هن لا يعرفن كاتبةً أكثر منها، ولكن جمهور النساء القارئات عندنا.. قليل جداً، فكثرة قرائها إذن من الرجال».

ويصل سلامة موسى إلى شخصية مي فيقول:

«... ففي مي شيء كبير من عمق الإحساس وبسطته، فهي تفهم

---

(١) مي أديبة الشرق والعروبة / محمد حسن.

بنبوغها عقلية الرجال، كما تفهم بطبعها عقلية النساء، ومن هنا ندرك اهتمامها بجملة موضوعات أدبية واجتماعية.. أما عن ترقيتها نفسها فلست أعرف أديباً يعنى بذلك بمقدار عنايتها.. ولميّ في الأدب العربي ثلاث شخصيات كل واحدة منها جديرة بالدرس فهي شاعرة قد ألّفت الشعر باللغة الفرنسية، ثم هي خطيبة، تعرف كيف توقع على أوتار الجمهور المستمع لها وكيف تؤثر فيه وتصل إلى مكمن العاطفة فيه ثم هي أيضاً كاتبة اجتماعية، وهذا الطور هو آخر أطوارها.. وربما كان الميل للخيال والتعلق بالفن والمثل العليا أقوى فيها من الميل إلى درس الاجتماع.. وهي في آرائها الاجتماعية معتدلة لا تقول بالطفرة»[1].

---

(١) الهلال الجزء السابع، نيسان ١٩٢٤ / الآنسة مي بقلم سلامة موسى صفحة ٧٤٧.

مزاج كئيب

في الناصرة، في ذلك الجو الطبيعي المشبع بالتاريخ وأحداثه الأليمة وصوره التي تبعث على التأمل وتوحي بالاعتبار أكثر مما تسوق إلى الابتهاج والانشراح والإقبال على الحياة، تكوّن مزاج مي وستظل الناصرة بكل ما تمثل قائمة في ذهن الفتاة: «إيه يا ناصرة! لن أنساك ما دمتُ حيةً، سأعيش دواماً تلك الهنيهات العذبة التي قضيتها في كنف منازلك الصامتة وسأحفظ في نفسي الفتية ذكرى هتافات قلبي وخلجات أعماقي، لقد كنت لي مدينة الأزاهر العذبة وجمال التنعم بأطايب الأوقات في وجودي»[1] .

ولعل مكان تفتح الوعي عندها والظروف التي كانت تمر بها البلاد قد جعل الحزن والألم هما اللذان يسيطران على كتاباتها الأولى فتخرج على الدنيا في أول أثر أدبي أعطته وهو «أزاهير حلم»: كئيبة، مغلولة

---

(١) مذكرات مي / ص ٢٣ .

هاربة تقول:

«دعوني أياماً فإني لا أود أن أسمع إلا الحفيف الخفيف، الموسيقي، الحنون الذي تتنفس به هذه الجبال ألا أبعدوا عني، ولو حيناً، أصوات البشر التي تتبطن الحسد والحقد والغل»[1].

(وقد جاءت كآبة مي من كثرة تطلعها الدائم إلى كشف أسرار المجهول: فهي حين لا تظفر بجواب مقنع شاف عن سر المتناقضات في الحياة وعن سر اللذة والألم لا تجد لها سلوة إلا في الاكتئاب وكأنها تجد الخلاص من الداء بالداء)[2].

من مقدمة كتاب «ابتسامات ودموع»:

«كنت كئيبة، كنت أكتئب لغير سبب، وأكتئب للعوامل الدافعة بالاجتماع الشاغلة أفراده ليلاً ونهاراً حتى إذا احتميت بحمى الطبيعة وألقيت عليها اتكال روحي رافقت الكآبة حبي واتكالي. الكآبة خاتمة شعور الإنسان إزاء الجمال والقباحة، والخير والشر والعدل والظلم، والكره والحب والفوز والخذلان، إليها تنتهي حركات التأثر في جميع خطائر النفس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام الدامس. أهي ناتجة عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم، وبعجزه عن تحويل الأشياء عن مجراها؟.. قد يكون، ولكن الواقع أن التنهد والامتثال نهاية كل عاطفة وكل فكر كما أن كل عمر بشري يختم بإرسال الزفرة وإسبال الجنون».. وعندما يأتي المساء وتبدأ الشمس

---

(١) أزاهير حلم.
(٢) مي أديبة الشرق والعروبة / محمد حسن.

بالانسحاب ليحل محلها الظلام تبدأ الكآبة بالتسلل إلى قلب مي زيادة:

«أرخى الشغف سدوله على الأرض بطيئاً ولفقت حواشي السحب بخيوط الذهب والفضة وتلاشى ما كان يبدو كبحيرات الياقوت، وبرك الزمرد حيال عرش الغروب، وغشت الأرض كآبة ربداء، وغشت عينيك كآبة ربداء، أي شمسٍ تغيب فيك ـ أيتها الفتاة ـ ولماذا يشجيك المساء لتغشي عينيك هذه الكآبة الربداء؟ ألا احرصي على قلبك أيتها الفتاة».

إن الحزن الدائم يدفعها إلى ذرف الدموع الغزيرة المدرارة فدموعها لا تجف ولا تنضبِ فتسأل الله عن سر الدموع ولماذا كتب على الإنسان أن تدمع عيونه دائماً إنها تناجيه بصوت عالٍ وتسترحمه الغفران لكل الضعفاء فإنه القوي والقادر على إبعاد الشقاء والعذاب عن الإنسان الضعيف:

«حزينة اليوم روحي، وحزنها القاتم مؤلمي
فعلام الاكتئاب؟
أيها الإله!
لماذا وضعت في عيني الإنسان هذه العبرات
لماذا؟
أية مسرة أنت ملاقٍ في النكال والإيلام؟
إنك القادر ونحن ضعاف
إنك العظيم ونحن بائسون؟
نحن أشرار وأنت كل الصلاح.
أما كان الغفران أجدر بعظمتك؟
أو ما كان تلاشينا أوفق لرحيب قدرتك؟!
ولكنك لم تفعل هذا ولا ذاك، ونحن نشقى ونتعذب

نفسي اليوم حزينة وحزنها قاتم. أفكر

في الأوراق المتناثرة وفي الأحباء الذين يضحكونها،
وفي الموتى الذين مضوا كأنهم لم يكونوا».

وقد كانت مي صلبة أمام الآلام متحملة للمصائب والهموم. فهي كما قالت عنها هدى شعراوي: «فذة في أحزانها، غريبة في همومها وآلامها، كما كانت فذة في عبقريتها وبين بنات جنسها».

وهي دائماً تمجد النفوس الكبيرة الصابرة على الألم المتحملة للمصائب:

«ما أشرفك أيتها الأنفس التي تجردت من الثروة!
وأنت أيتها الأنفس المتجبرة التي لا تحطمها أحداد الدهر!

وما أسمى شموخ الأنف الذي لا يذله الفقر!
وما أنبل القلوب الشهمة التي تثقلها الآلام ولا تخنع».

ثم تفكر مي بالموت وكأنه الرجاء والمخلص إنه الشوق الدائم عندها.

«أشتاق إلى الموت في هذه الأيام. ذلك لأني لا أفهم الحياة التي يقول مرشدنا الروحي: إنها مشكلة المشاكل. .».

مي والطبيعة

إنها ابنة الطبيعة الوفية وعاشقتها المخلصة المشتاقة دائماً. لقد أحبت كل ما في الطبيعة، أحبت وديانها وجبالها، بحرها وسهلها، غاباتها المتشابكة أو صحرائها الممتدة.. أحبت الزهور وعبيرها.. العصافير وغريدها، حتى صرير جندب أو طنين نحلة كان يطربها: في قصيدتها الفرنسية «دعوني» من ديوانها «أزاهير حلم» نرى حبها اللامتناهي للطبيعة فهي لا تريد من دنياها إلا أن تنعم لأيام بالرقاد تنصت السمع لحفيف (الموسيقى الحنون الذي تتنفس به الجبال).. إنها تريد البعد عن الناس لأن الحب يحلو في أحضان الطبيعة الخلابة:

«دعوني في هذا الملجأ الساحر، دعوني وحيدة
أحيا مطمئنة بعيدة عن ضوضاء المدن
دعوا لأنظاري تلك الرؤى العذبة
دعوا لأفكاري أحلامها الرخية
دعوني أنعم بالرقاد
دعوني أياماً فإني لا أود أن أسمع
إلا الحفيف الخفيف الموسيقي الحنون

الذي تتنفس به هذه الجبال

ألا أبعدوا عني ـ ولو حيناً ـ أصوات البشر
التي تتبطن الحسد والحقد والغل
هنا يطيب لنا الحب.

* * *

أجل: يطيب لنا الحب بين الأشجار المنعزلة
والخرائب البائدة، وما حملت من أخبار الزمان
وهذه الصخرة الكئيبة
كل ما في هذه الربوع يجذبني ويسحرني
الأوراق التي أحسها تنبض، والعصافير التي تغرد
كلما رأتني أدنو».

لطالما أحبت الطبيعة وأرادت أن تنقل لكل إنسان هذا الإحساس الأزلي بالجمال

«والجبال التي تحيط بنا، والأشجار التي تفيئنا ظلالها الوارفة والمياه المترنمة عند أقدامنا، والعصافير المزقزقة الطروب، كل منها يترك في نفوسنا أثراً بليغاً خاصاً لا يقوى على محوه الزمان».

إنها لوحات شعرية رائعة الجمال منسابة بهدوء مريح للنفس والأعصاب تلك اللوحات التي ترسمها لنا مي زيادة بقلمها الرشيق الذي يجسد كل حركة أو سكنة من سكنات الطبيعة الخلابة الموحية دائماً:

«في سديم ضباب الصباح الفضي ترتسم الجبال فيثير التلفظ بأسمها شعوراً مؤلماً في النفس، . .

تلك هي جبال لبنان!..

عصبت هامتها أكاليل من المرجان، وغمرت أعماق أوديتها الظلال..
الشمس تتيه عجباً بأذيالها الذهبية تجرها على الكائنات وتسبغ على الصخور والجبال الخضراء والمنازل الشاحبة من كرور الزمان ألواناً فتانة، ينعكس النور عليها فتبدو كالزمرد والياقوت، ويلتحف البحر والجو والهواء بفيض من الضياء!..
إنه مشهد يفوق الوصف
أين قلم لامارتين السحري ليعبر عن هذا الجمال؟..
ومن يستطيع سوى شاعر البحيرة أن يعبر عن سحر الطبيعة الفتان؟..».

إن طبيعتها التي تجعلها تميل إلى الوحدة والعزلة بنفسها عن الناس جعلتها تلجأ إلى الطبيعة فتحس فيها بالأنس وبأنها الملجأ الأخير.. فكانت تجد حتى في أصغر الأشياء سلوى لها.

«أحب أن أحلم منفردة تحت السماء الساكنة الصافية
أحب عدّ الحصى التي تطؤها قدماي وأزاهير الحقل التي أصادفها على الطرقات..

إني لأجد عذوبة أن أتيه في الغابات عندما يغشى الغسق الوادي وأن أسمع همس الآلهة مرنمة حول الينبوع».

ويتحول هذا الحب إلى (عبادة حارة خاشعة) فكان الامتنان والشكر دائماً للحياة التي مُنحتها وللطبيعة التي عاشت بين أحضانها

ولكل الموجودات التي خلقها الله:

> «وكم خلت القوة الحيوية غباراً ذهبياً أو سيلاً أثيرياً منبعثاً من البحر والجبال والكائنات جميعاً، وكم عبدت الطبيعة عبادة حارة خاشعة كعبادة المتدينين والشعراء والمتيمين، أولئك الذين يقدسون الحياة خارجاً عن أشخاصهم ومحصورة في إله أو رمز أو إنسان. وكم ملأت الدموع عيني شكراً للحياة، شكراً للطبيعة، شكراً لجميع الموجودات».

إن هذا الاتجاه التأملي ـ أي النظرة العميقة إلى الأشياء والتساؤل عن معانيها وأسرارها، ومحاولة النفوذ إلى ما وراء الظاهر، يجعلها لا تكتفي بوصف مفاتن الطبيعة، بل تصف كذلك انعكاساتها في نفسها، وتلقي عليها ظلالاً من عواطفها وتصوّراتها. ففي الغابات تسمع همس الآلهة مرنِّمة بجانب الينبوع، وحفيف أجنحة الأرواح مرفرفة حولها.. تتخيل الأمطار عبرات يسكبها سكان الكواكب المتلألئة. في الرقيع، وأشجار السنديان الشامخة تبتسم حانية على الأزهار الصغيرة البرِّية فتسمح لها بالنمو في ظلالها.

إذا نظرت إلى الجبال، جسّدت فيها ذاتها فبدت لها حالمة مثلها، تحلم بالزرقة البعيدة، وبأعماق الأنوار الغامضة وبخفايا القبور المبهمة.

وإذا نظرت إلى أوراق الخريف المتهاوية، خُيِّل لها أنها سئمت أسر الالتصاق بالشجرة التي أنالتها الحياة، وحرّكها الشوق إلى الحرية والانعتاق. فأخذت تترنّح في الهواء مغتبطة بحريتها. ولكن سرعان ما

هبطت إلى الأرض حيث داستها الأقدام وحيث ينتظرها التحلُّلُ والاضمحلال، فكانت الخيبة جزاء سعيها والموت ثمن حرّيتها[1] .

---

(1) مي زيادة / روز الغريب.

مع النهضة النسائية

إلى جانب النشاط الصحافي والأدبي الذي كانت تقوم مي زيادة به، من كتابة المقالات والترجمة والتأليف.. فقد كانت تشارك في الحركة النسائية على جميع جوانبها الثقافية والاجتماعية والسياسية.. وقد أعجبت مي زيادة بالكاتبة الكبيرة باحثة البادية (الكاتبة ملك حفني) وتبادلت معها الكثير من الرسائل وتعرّفت بها وارتبطتا بصداقة متينة.

وقد بدأت منذ عام ١٩١٢ بنشاطها الفعلي لتحرير المرأة العربية وقد لقيت الكثير من التشجيع في مختلف الأوساط المصرية الراقية واللبنانية على السواء، وقد كان العصر في ذلك الوقت كله يتجه إلى تحرير المرأة وقد عجل اندلاع الحرب العالمية الأولى بيقظة العالم على الروح النسوي والإفادة من هذا الروح في تركيز قواعد السلام، ونشر معاني الرفق والمحبة في المدارس والمعامل والمتاجر فضلاً عن المنازل.

وفي محاضرة «المرأة والتمدن» التي دعا إليها النادي الشرقي

خلال نيسان عام ١٩١٤ ما يضع ذلك موضع اليقين إذ قررت أن: «المدنية لم تقم بتمام واجبها بعد، ولم تصلح من الأحوال إلا البعض اليسير وأنتم تعلمون سبب ذلك النقص وتعرفون موضع الضعف من مدنية القرون المنصرمة. ذلك الضعف الشائن والنقص الهائل ليس إلا تقهقر نصف الإنسانية هو جهل المرأة»[١]

وهكذا تحولت مي من قوقعة نفسها وأحلامها وعواطفها الخاصة إلى معانقة الروح الإنساني في شخص المرأة.

وقد مشت مي زيادة هي نفسها في طريق الخدمة الذاتية لقضية المرأة والنهضة النسوية فبنت نفسها بناءً صحيحاً ينسجم مع المهمة التي انتدبتها لنفسها من تحرير المرأة فدرست أمهات الملفات وجعلت من نفسها قدوة ومثلاً واضحاً في العمل والجهاد من أجل الهدف السامي وركزت مقالاتها وخطاباتها في هذه القضية ونصرتها ولم تتوانى لحظة عن تقديم المساعدات والنصائح لكل سيدات المجتمع. ثم من أهم ما قامت به هو منتداها الأدبي أو (صالونها) الذي أنشأته في منزلها وكان ملتقى للكثير من رجال الفكر والأدب في القاهرة.

ومن أهم ما كتبت مي زيادة هو الرسالة التربوية التي توجهت بها إلى البنات المصريات لتنشر في كتاب مدرسي بعنوان «محفوظات البنات» ثم نشرتها في كتابها «بين الجزر والمد»:

وتخاطب مي في هذه الرسالة الفتاة المصرية الصغيرة موجهة إليها النصائح والتوجيهات قائلة:

---

(١) «كلمات وإشارات» تأليف مي زيادة.

«الحياة أمامك، أيتها المصرية الصغيرة، ولك أن تكوني فيها ملكة أو عبدة:
عبدة بالكسل، والتواكل والغضب والثرثرة، والاغتياب والتطفل، والتبذل، وملكة بالاجتهاد والترتيب، وحفظ اللسان، والصدق، وطهارة القلب والفكر، والعفاف، والعمل المتواصل،
فإن عشت عبدة بأخلاقك كنت حملاً ثقيلاً على ذويك فكرهوك ونبذوك، وإذا عشت ملكة أفدت أهلك ووطنك وكنت محبوبة مباركة فأيهما تختارين؟

إذا اخترت الملك فروِّضي نفسك على المكارم منذ الساعة لأن الملوك يسلكون طريق العز منذ الصغر».

وهكذا نجد أنه لا يمكن أن تذكر النهضة النسائية في الشرق العربي، إلا ويتسابق إلى الأذهان اسم مي الأديبة الموهوبة التي ساهمت ولفترة طويلة في طريق الحثّ على التحرر والمساهمة في بناء المجتمع العربي الذي يجب أن تكون المرأة هي المساهمة الأولى والأهم في طريق التحرر. فكانت دعوة مي للمرأة هي درس وضعها وبيئتها وطبيعتها، فأوضحت موجباتها، وأيدت حقوقها واتخذت من باحثة البادية، مثلاً أعلى للجهاد النسائي. وباحثة البادية (١٨٨٦ ـ ١٩١٨) هي الأديبة المصرية التي لم يتح لها ما أتيح لمي، من غذاء ثقافي عالمي، ولم تحدث في الأدب العربي ما أحدثته مي، لكنها اتجهت إلى ميدان آخر بحكم ظروفها الخاصة، فخاضت بقلمها معركة تحرير المرأة.

أما نجاح مي في مهنتها الكتابية فهو دليل على نجاحها في إثبات

ذاتها، وإرضاء طموحها، والتغلب على تقاليد البيئة التي رأت في المرأة مخلوقاً عاجزاً، فكان نجاحها فوزاً للقضية النسائية التي كافحت في سبيلها كما كان انتصاراً للقيم والمبادىء التي أحبتها وآمنت بها.

وفي حديث لمي زيادة مع العقاد، ناقشت فيه وإياه موضوع الديمقراطية أشارت إلى حق المرأة في الانتخاب، وكان حينذاك من الموضوعات الحرام في المجالس وفي الصحف. ولكن العقاد ينكر على المرأة هذا الحق بحجة أنها بفطرتها «غير ديمقراطية» إذا ذهبت إلى صندوق الاقتراع، تقترع للمرشح الذي يملك سيارة مفضلة إياه على المرشح الذي يسير ماشياً على قدميه. غير أن مي تصرّ على الدفاع عن حقوق المرأة وتقول: «إذا ثبت أنها تفضل صاحب السيارة، فلا بد أن تكون لها مبرراتها في هذا التفضيل»[1].

هكذا نرى أن آراء مي في المرأة رغم تقدميتها متأرجحة، تميل إلى مراعاة مستوى البيئة التي لم تكن حينذاك مستعدة لقبول التطوير الجذري في هذا الموضوع، والتي رمت قاسم أمين بالكفر والإلحاد لأنه جنى هذا الإثم الفظيع الذي يدعى المناداة بإصلاح المرأة.

ولم تخرج فيما كانت تردد على المنابر في هذه الجمعيات عن موضوع النهضة النسائية وأن الحضارة الحاضرة تبدو عرجاء لأنها تتكىء على جنس واحد، وأن موجة النور الصاعدة، نور الوحي، النسائي تزداد ارتفاعاً واتساعاً لتأخذ المرأة مكانها في هذه الحضارة.

وكتابها «كلمات وإشارات» يعد فتحاً نسائياً في أدبنا الحديث بما

---

(١) مي أديبة الشرق والعروبة.

ضمّ من الخطب القيمة.

ومي من أوائل النساء العربيات اللواتي أدركن أن المرأة لا يفهمها إلا المرأة وأن علل النساء لا يعرفها إلا امرأة مثلهن لأنها أدرى بعلة أختها وبنت جنسها، وأن للرجل ميدانه الذي لا يجوز أن يتخطاه إلى ميادين النساء.

ولها في ذلك عبارات حكيمة واعية، منها عبارتها إلى باحثة البادية تقول:

«تتوالى الأيام ونحن في ضلال مبين، الرجل يجاهد في حرب الاقتصاد الدائمة. الرجل تائه في مهامه الأشغال، فإذا كتب بحث في العموميات، وإذا جال قلمه في الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النسائي لأنه يكتب بفكره، بأنانيته، بقساوته والمرأة تحيا بقلبها، بعواطفها، بحبها، علاتنا مستعصية لا يشفيها إلا طبيب يعرفها، والمرأة بعلَّة جنسها أدرى، فهي تستطيع معالجتها ولا تطلب هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن الحياة إلا ما يصوره لهن الخيال المخيم بطلائه على منابت العواطف المخصبة.

هذا اعتراف ساذج صادق، الفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية، وإن لم ير فيها من الاستفهام شيئاً، ولكن الزوجة والأم التي أعطيت ذكاء وفطنة، وعلماً وشعوراً قوياً، تدرك بواسطته كل

ما في الحياة من حلاوة ومرارة، تلك تستطيع وضع المرأة في مركزها السامي، وتلك تقدر أن تعمل في مزج نصفي الشخصية المتألمة، شخصية المرأة، وشخصية الرجل»[1] .

ورغم أن مي نادت المرأة لتقوم بواجبها في المجتمع ولكنها في الوقت نفسه دعتها أن لا تتخلى عن أنوثتها بل على العكس أن تغذي هذه الأنوثة وتبلورها، لقد رددت دائماً:

«إن أكبر فخر للرجل وأعظم عنوان لمجده إنما هو كمال رجولته، الرجل الناقص الرجولة لا يغني عنه علمه ولا ماله، بل يظل ناقصاً أبداً، فأما من كملت رجولته، فقدير على أن يستكمل بفضلها ما ينقصه من الناحية التي ينبغي الكمال فيها. ذلك حق نقرّه جميعاً، فمالنا لا نقر الحق الذي يقابله فنقول:

إن أكبر فخر للمرأة، وأعظم عنوان لمجدها، إنما هو كمال أنوثتها. وإنها بكمال أنوثتها تستطيع أن تكمل ما ينقصها في الناحية التي ينبغي الكمال فيها. وكما أن الرجولة قوة ونضال وحرص على الظفر، فالأنوثة عطف وحنان ومحبة»[2] .

---

(١) رسالة «مي» إلى باحثة البادية سنة ١٩٠٢ في كتاب رسائل مي.
(٢) خطاب مي لباحثة البادية.

مي والروح الشرقية عندها

كانت مي معتزة بعروبتها فخورة بها لم تحاول تقليد الغربيين. الفكرة الشرقية عندها عالية ورسوخ العقيدة القومية.. وهي وإن كانت تدعو إلى مجاراة الغرب في ميدان الحياة والنشاط والكفاح والنضال ولكنها لا تنسى شخصية الماضي في الشرق ولا تنسى مثله العالية، ولا تنسى طهارة أرضه التي شرفتها الرسالات، ولا قدسية سمائه التي نزلت منها النبوات.

من كتابها «بين المد والجزر» تقول:

«عندنا عادات جميلة ووراثة أثيرة تحسن المحافظة عليها غير أنها لا تكفَينا. ليتغنى بها الشعراء ولينشدها المنشدون ولينح عليها محبو الندبَ والنواح.. ولكن من الحياة وراءنا، واقتباس المحتوم لا يغض من كرامة الأمم لأنها مركبة من روح وجسد فشعرها وفلسفتها وفنونها وإلاهياتها وأديانها وتذكاراتها الثمينة كل هذا بمثابة غذاء الروح. أما الحياة المدنية

منها الحياة المحسوسة فلها أساليبها الآلية والمالية والاقتصادية والاجتماعية».

لقد حافظت مي على الروح الشرقية عندها رغم اطلاعها الواسع على الآداب الغربية فهي إنما درست أدب الغرب لتتعرف عليه وتستوحي منه لا لتقتبس:

«لقد أعطى الشرق للغرب أدياناً وأخلاقاً وفلسفة إلهية وأنبياء وإلهاً فتلقاها الغرب شاكراً وارتقى بها، أفيخجلنا أن ننتفع باختباراته الدنيوية وعلمه، والدنيا دنيا الجميع كما أن الله خالق الجميع».

إنها الدعوة إلى الأخذ بعلوم الغرب وأفكاره فما ضرّ لو فعلنا ونحن نعلم أن كل ما لديه من علوم دينية ودنيوية إنما أصله شرقي وعربي، فلعل باستطاعتنا أن نستفيد من هذه العلوم.

وكان تعرفها إلى كبير مفكري مصر ومعلم جيلها أحمد لطفي السيد قد جعلها تتحول في تحصيلها وثقافتها الفرنسية إلى العربية وبيانها لتحسن التعبير فيها والنبوغ.

وقد دلها على الطريق وأخذ بيدها، فتعمقت فيما أراد لها من دراسة جديدة، وكان ينشىء «الجريدة» مدرسة الرعيل الأول من المفكرين والأدباء المصريين، فتابعت خطاها وآراءها وتأثرت بدعوة المعلم الوقور «مصر للمصريين» وكانت هذه الدعوة الهادفة من أصدق ما تردد في مصر بين مختلف الدعوات الفكرية والإصلاحية، إذ كانت نكبات الحرب الأولى ومغانم الحلفاء فيما تقاسموا من البلاد المغلوبة على أمرها حافزاً للشعور العربي بالذات، والشخصية، والحقوق المغتصبة ظلماً وزوراً، فشاعت الدعوات للقومية والوطنية، وما كادت

ثورة مصر (١٩١٩) تندلع بغضبها على الاستعمار وتستجيب بأهدافها لرأي معلمها أحمد لطفي السيد، حتى كانت مي من دعاة النزعة الوطنية والثورية، فنشرت المقالات الجريئة حولها. وسميت أيام الثورة بالأيام العصيبة.

وقد تأثرت مي بمنازع معلمها وأصدقائها من أحرار الكتاب والخطباء، فأخذت تخاطب الجمهور وتتجاوب مع المظاهرات الشعبية لسيادة مصر وحريتها، ولا تحجم عن تأييد الدعوة لتحرير المرأة العربية بتعليمها وإنصافها.

وكان الاتجاه القومي بمصر يتمثل في الحفاظ على مقومات الحياة، بالشخصية الإقليمية، وتراث الحضارة والعقيدة. فلا يستأثر بخيرات بلادها غربي ولا غريب فكان المصري الواعي يتلمس حريته وحقيقته في كل نقمة على الحكام وفي كل محنة وطنية حتى برزت مدلولات الأهداف التي دعا لها أحمد لطفي السيد وصحبه، فرأتها مي بشائر للتحرر من كل سيطرة سياسية واقتصادية[١].

وقد تركت الحركات الوطنية في مختلف الأقطار العربية ضد الاستعمار في نفسها وأدبها أثراً عميقاً، ولقد اعترفت بأن هذه الحركات قد جعلتها تشعر أن كل بلد شرقي وطن لها محاولة جمع الشمل والكلمة عند العرب.

وبذلك أخذت تنهمر كتاباتها في الصحف المصرية وتتدفق خطبها

---

(١) مي زيادة في حياتها وآثارها / وداد السكاكيني.

على المنابر، وتتوالى كتبها في سوق الأدب مترجمة مرة،ومؤلفة مرة أخرى، حتى غذت نهضة الفكر العربي والنهضة النسائية، مدى ربع قرن.

نشاط اجتماعي
«ندوة مي زيادة الأدبية»

اتخذت مي من منزلها في كل يوم ثلاثاء ندوة أدبية يؤمها الأصدقاء وأعلام الفكر والأدب. وبذلك أعادت إلى الحياة الأدبية في مصر صالونات الأوانس والسيدات اللواتي كان لهن الفضل في إحياء الثقافة ونشرها في المجتمع الفرنسي عهد لويس الرابع عشر ومن تلاه من ملوك فرنسا.

فيتحول المجلس إلى سوق عكاظ وتروج المباحث العلمية والفلسفية والأدبية.

فرواد المنتدى كانوا ينتمون إلى طبقات اجتماعية مرموقة، ولكل منهم شخصيته اللامعة البارزة في حقل أو ميدان من ميادين الحياة الفكرية (يعقوب صروف، عباس العقاد، أنطوان الجميل، منصور فهمي، أحمد شوقي ومصطفى الرافعي وولي الدين يكن وغيرهم كثيرون).

وجادت قريحة رواد النادي من الشعراء بقصائد تناقلتها الأقطار العربية يومذاك، منها ما قاله الشاعر إسماعيل صبري في رسالة لمي، وقد اضطر للغياب مرة، فكتب إليها شعراً يعتذر:

روحي على بعض دور الحي حائمة
كظامىء الطير حواماً على الماء
إن لم أمتّع بميّ ناظري غداً
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

أو تلك الأبيات التي يترجم فيها أحمد شوقي انطباعاته عن مي في صالونها:

أسائل خاطري عما سباني
أحسنُ الخلق أم حسن البيان؟
رأيت تنافس الحسنين فيها
كأنهما لمية عاشقان
إذا نطقت صبا عقلي إليها
وإن بسمت إليّ صبا جناني
وما أدري أتبسم عن حنين
إليّ بقلبها أم عن حنان
أم أن شبابها راثٍ لشيبي
وما أوهى زماني من كياني

وكانت الأحاديث التي تدور في الندوة تتعلق بمواضيع كثيرة ومنوعة وبمختلف الألسنة.

ولم يكن الأدب وحده الذي كان يشدّ مياً إلى الحياة الاجتماعية

بل كانت تولي الموسيقى اهتماماً خاصاً فقد عرف عنها أنها كانت تتقن العزف على العود والبيانو فكانت في صالونها تعزف بعض الألحان وتغني أغنيات لبنانية منها «يا حنيّنة».

وكانت مي تتولى إدارة الحديث ببراعة فذة وبلباقة الواثق بنفسه متصرفة في شؤون الفكر تصرفاً حاذقاً، يزينها تهذيب جمّ وتواضع كبير، فتعقد المشادات الذهنية على بساط البحث الحر وتزيد ترابط الأدباء بما تحرص عليه من حفظ قدر كل منهم. ولعل خير دليل على براعتها النادرة في هذا النطاق، إدارتها المجمع يوم انعقد للتشاور في الاحتفال بعيد (المقتطف) الخمسيني، وقد حضره نحو ثلاثين كاتباً ووزيراً، ووجيهاً، فرقت بين أكثرهم المنازعات السياسية إلى حد التقاطع والعداء. فقضى الجميع عندها على حد قول العقاد، ساعتين نسوا خلالها أن في البلد أحزاباً ومنازعات سياسية.

وكان حديث مي في الغالب باللغة العربية الفصحى التي تصل إلى جعلها لغة حديث في مجمع راقٍ ليس كل شاهديه من أنصار العربية الفصحى، من غير أن يشعر أحد من سامعيها بأن حديثها أقل سلاسة أو أظهر تكلفاً من حديث المتكلمين باللغة العربية العادية، أو المتكلمين بأي لغة من اللغات الحية الراقية.

وتعد ندوة مي كعبة للفكر العربي، في حقبة من الزمن كانت الحاجة فيه ماسة إلى تقرير مصير الاتجاهات الأدبية والفكرية. وعملت في البحث عن أسلوب عربي جديد، يقع في الوسط بين الأسلوب القديم واللغة العامية لأن مي جعلت الحديث والتحاور في الندوة باللغة العربية الفصحى البسيطة والتي كان يشوبها التكلف والتصنع.

كذلك أسهمت الندوة في التقارب بين الثقافتين الشرقية والغربية،

فكانت اللغات الأجنبية كالفرنسية والانكليزية لها منزلة فيها.

وكان الأدباء يطالعون ويدرسون، وينقدون نماذج من الأدب الأجنبي شعراً أو نثراً، فأسهم هذا في تطعيم الأدب العربي بالآداب الأجنبية محاولاً الإفلات من القيود القديمة والسير في ركب الأدب الإنساني الصرف الحديث.

وكان من أهداف الندوة أيضاً، كونها بادرة طيبة في سبيل غد زاهر يفتح أمام المرأة العربية باب الحياة الاجتماعية على مصراعيه ونرى هذا في أناقة مي وفي احترامها نفسها والآخرين، فكأنها بذلك كانت تريد أن تكون قدوة ونموذجاً حياً لمستقبل المرأة الشرقية.

ولقد كان لها من الأثر في العصر الحديث مثل ما كان لندوة سكينة بنت الحسين، من أثر توجيه الذوق الأدبي.

وكما لفتت سكينة أنظار الناس وإعجابهم لفتت مي أنظار أبناء جيلها.

وهذه الندوة، احتفظت بأجمل المطارحات الأدبية والأحاديث التي خلدت أصحابها، وبنت لغيرها أدباً وعلماً أضاء الطريق وأحيا التراث وشجع الباحثين والمؤلفين على مسايرة التطور، والتحرر من القيود والجمود، وطالت أعوام الندوة زهاء عشرين عاماً[١]

وكان فقدان هذا المنتدى وصاحبته، فجيعة أحس بها كل رواده وعارفو فضله، وقد أجاد خليل مطران وصفه ووصف فجيعته حين قال:

---

(١) مي زيادة في حياتها وآثارها وداد السكاكيني.

أقفر البيت أين ناديك يا مي إليه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلاً وفضلاً في ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروباً ويدار الحديث فيه شجونا
وتصيب القلوب وهي غرات من ثمار العقول ما يشتهينا

مي والنهضة الفنية

ظهرت روح مي الشرقية أيضاً عندما قارنت بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية، فبينت لنا أن الموسيقى الغربية بحاجة لدرس واطلاع حتى نتذوقها ونفهمها، وأن الموسيقى الشرقية يتجسم فيها دون غيرها، معنى الامتثال اليائس والصبر المرير.

تمنت مي لموسيقانا أن تظل شرقية محضة، تعبر بأنغامها العميقة الحزينة، عن خفايا القلب الشرقي وحنينه ولوعته، وتلمس نفوسنا بترجيعها البسيط فتهتدي فيها إلى مستودع العواطف الشجية وينبوع العبرات السخية.

ولا تنكر مي أصالة الموسيقى الأوروبية وبناءها على قواعد راسخة من العلم والفن، ولكنها في الوقت نفسه لا تنكر بساطة الموسيقى الشرقية وجمالها، ولم يمنع تقدير مي للموسيقى الشرقية وجمالها من نقدها وإظهار عيوبها حتى يتاح للمصلحين إصلاحها وحذف ما علق عليها من الشذوذ، والإفراط في المرادفات والتطويل في الآهات وذلك ببث نسمة الإنعاش فيها، ومعرفة التطوير والتجديد،

ولكن ليس بالنقل، بل بالاستيحاء للنهوض بها إلى مستوى فني رفيع.

وتحمد مي في الموسيقى الشرقية الجديدة، التجديد الأخير الذي دخل عليها، وهو ضبط الألحان بالعلامات الأجنبية، بعد أن كانت كالشعر القديم تنتقل بالتواتر والتواتر من جيل إلى جيل.

ومي في نقدها للتصوير تظهر حذقاً لا يقل عن مقدرتها في نقد الموسيقى حين تقول:

«إن الرسم والتصوير والنحت، كالشعر والموسيقى والكتابة الأدبية، فلا بد أن يتساوى فيها حظا الصنعة والفن، أي كيفية التعبير، وكمية من شخصية يتسنى التعبير عنها.. وليس من الضروري أن يتكاثر العدد، ولكن من المحتم أن يرتقي الفنانون، وتصقل مواهبهم، وتجود آثارهم»[١].

ونلاحظ أنها في مقالها «معرض الصور المصري» كما في مقالها عن الموسيقى تعد رائدة لأنها تعالج موضوعاً جديداً، وتأتي بمصطلحات جديدة، لأن نقد الفنون الجميلة.كان لا يزال في طور الحداثة.

وكان غرضها الأول من مقالها هذا هو تشجيع إقامة المعارض كشرط أساسي لتعزيز النهضة الفنية ومن هنا تبرز غيرتها على النهضة بجميع مظاهرها في التصوير، أو في الموسيقى أو سواهما.

---

(١) مي زيادة التوهج والأفول.

مي زيادة وتعلقها باللغة العربية
والسير بها نحو التطور والنهوض

أحبت مي اللغة العربية حباً كبيراً فشغلت نفسها لفترة طويلة بمسائلها ومشكلاتها، مقترحة وسائل لإصلاحها وجعلها متمشية مع مقتضيات العصر وتطور الزمان.

ولها مقال يدل على دراسة عميقة واستيعاب لحضارات الأمم عامة وحضارة العرب خاصة عنوانه: «حياة اللغات وموتها، ولماذا تبقى اللغة العربية حية؟».

تناولت فيه موضوع اللغة العربية والحضارة، وتعرضت لحضارات اليونان والرومان والعرب، بكلام يدل على اطلاع واسع وأثبتت فضل العرب على الإنسانية مؤيدة كلامها بأمثلة من واقع التاريخ ومن صحيح الوقائع.

وذكرت أن اللغتين اليونانية واللاتينية عدتا في صف اللغات الميتة

منذ سقوط مدنيتهما وأن العربية احتفظت بحياتها بعد زوال مدنية العرب بسبعة قرون، وردت ذلك إلى القرآن الكريم الذي كان باعثاً على تكوين المدنية العربية، والذي ما زال حافظاً لها وللغة العربية إلى اليوم.

ولقد بلغ من حب مي للعربية أنها كانت تهتم اهتماماً عظيماً بالمجامع العلمية العربية. وهذه المجامع لم تكن لها صبغة العلوم كمجمع تقدم العلوم البريطاني مثلاً، ولكنها سميت بالمجامع العلمية ـ كمجمع بيروت العلمي، أو كالمجمع العلمي العربي بدمشق ـ على الطريقة القديمة التي تسمي كل متخرج في الأزهر أو في القضاء الشرعي «عالماً».

وفي سنة ١٩١٩ وإثر ما تعرضت له اللغة العربية من مؤامرة بأنها صعبة التعلم وأن العامية أصلح للتعبير وأقدر على الأداء عبّرت مي عن غضبها لذلك تقول:

> «الإصلاح ليس الهدم دواماً بل هو في الغالب تبديل، وصقل وتكييف إذ ليس في صالح الأمة إنكار الماضي الزاخر بالأمجاد الأدبي والحكمة».

وقالت بعد ذلك:

> «أما نبذها ـ تعني العربية ـ والاستعاضة عنها باللغة العامية، فاعتراف بالعز والخذلان، لأن اللغة تنتعش بانتعاش الأمة وتجمد بجمودها».

لقد رأت في العامية خطراً على الفصحى ولم تأذن للأولى أن تدخل حرم الثانية وهو مقدس، ولم تجر مع الجارين في سبيل مناصرة العامية.

وكانت بموقفها النبيل هذا محترمة القواعد والأصول ويظهر اعتدالها في قولها:

«وما نطمع فيه ويعمل له التعليم والتهذيب، هو رفع العامة إلى فهم أوسع وأحذق والنزول ببعض الخاصة إلى ميدان أسهل ليتم في اللغة ما هو تام بين المراتب ومن التمازج»(١)

إنها ترى أن اللغة العربية الآن في بدء نهضة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الناطقين بها. ومن أهم دلائل هذه النهضة سيرها الحثيث، وهي تتناول شتيت المسائل بلغة جلية تطرح التطويل والتعقيد يوماً فيوم دون أن تفقد شيئاً من متانتها وروحها وذلك تمشياً مع حاجة العصر ونزعاته في السرعة والإيجاز. وما جاء به الزمن من مخترعات، وأحاسيس ومبتكرات وصور. كذلك أرادت أن نتكلم ما شئنا من اللغات، ولكن لا ننسى لغتنا العربية. وبينت أن شعراء الأجانب لن يصلوا إلى الإتيان بمثل ما يميز شعرنا من جزالة اللفظ وفخامة المبنى ووصف المعنى والبساطة البليغة، بساطة الروح العربي وبلاغته الخلابة.

---

(١) «بين الجزر والمد» مي زيادة

فن المراسلة عند مي زيادة

بالإضافة إلى الفنون التي عالجتها مي فإنها لم تنقطع منذ نشأتها عن معالجة فن كان دائماً مرآة لنفسية الأديب وتأريخاً لفترات حاسمة في حياته وسجلاً أميناً لثقافته نعني به «فن المراسلة».

وقد تنوعت دواعي رسائلها ومن هنا كان اختلاف مواضيعها:

١ ـ هناك الرسائل العائلية وهي التي تبادلتها مي مع أقربائها كرسائلها إلى نسيبها الدكتور جوزف زيادة ولا تخرج مواضيعها عن تدول أمور شخصية (نفسية وصحية).

٢ ـ هناك الرسائل الإخوانية وهي التي كانت ترسلها لأصدقائها وصديقاتها كرسائلها إلى يعقوب صروف ولطفي السيد وأنطوان الجميل وعباس محمود العقاد وأمين الريحاني وإلى ملك حفني ناصف (باحثة البادية) وجوليا طعمة دمشقية.

٣ ـ ومن هذه الرسائل ما تناولت أموراً ذاتية كوصف حالات نفسية أو مزاجية للكاتبة.

٤ ـ ومنها ما تناولت شؤوناً ثقافية فكرية غالباً ما ترتبط بمناسبات خاصة، كظهور كتاب أو إثارة قضية ثقافية في الصحف أو احتفال له طابع سياسي، كما هو في رسالة مي إلى لطفي السيد بمناسبة حفلة تأبين فتحي زغلول باشا، وكرسالتها إلى يعقوب صروف بمناسبة إثارة قضية الشعر القصصي الحماسي والملاحم في الصحافة المصرية..

٥ ـ وهناك الرسائل العاطفية وهي التي تبادلتها مع جبران خليل جبران وعباس محمود العقاد.

وهذه الرسائل العاطفية لم تكن تخلو من تناول بعض الأمور الثقافية. ففي رسالة لها مرسلة إلى جبران خليل جبران في ١٢ أيار سنة ١٩١٢ يمتزج رأي مي في كتاب (الأجنحة المتكسرة) لجبران بمناقشتها له بموضوع الزواج.

٦ ـ وهناك الرسائل الصحافية ونقصد بها الرسائل التي كانت تتبادلها مي مع قرائها مباشرة أو على صفحات الصحف تعليقاً على مؤلفاتها ومقالاتها.

٧ ـ هناك نوع من الترسل لمي في رسالة واحدة فقط من باب الترسل مع الذات. ففي الرسالة التي وجهتها مي إلى فتاة (وقد نشرت في «سوانح فتاة» تحت عنوان «ألا احرصي على قلبك يا فتاة») ننتبه أن هذه الفتاة الموجهة إليها الرسالة ليست سوى كاتبة الرسالة مي زيادة بالذات.

أهم الرسائل المنشورة لمي حتى اليوم هي:

أ ـ الرسائل التي نشرتها في مؤلفاتها: (أزاهير حلم ـ سوانح فتاة ـ الصحائف ـ بين الجزر والمد).

أزاهير حلم: احتوى على رسالة إلى صديقة لها اسمها سيدوني ريبرجر، ورسالة إلى صديقة لم تذكر مي اسمها سوى (ص ـ ر).

سوانح فتاة: اشتمل على رسالة مي إلى الفتاة التي أشرنا إليها.

بين الجزر والمد: رسالة من مي إلى الفتاة المصرية تحت عنوان «الحياة أمامك» وعلى رسالتين إلى الدكتور يعقوب صروف تحت عنوان «رسالة وحاشية» و «الشعر القصصي الحماسي» تناولت فيهما مواضيع أدبية.

الصحائف: نجد رسالة من مي إلى لطفي السيد بمناسبة عدم دعوة النساء لتأبين فتحي زغلول باشا.

أما من راسلتهم مي فكانوا:

من الصعب تسمية جميع مَن راسلتهم مي ولكن ومن خلال الكتب التي جمعت رسائلها أمكننا التعرف إلى بعض أسماء الذين كان بينها وبينهم رسائل متبادلة عالجت جميع الأمور وأهم مستجدات العصر..

ومن الذين راسلتهم (ولي الدين يكن) وأنطوان الجميل وأمين الريحاني وعباس محمود العقاد وجبران خليل جبران وأحمد لطفي السيد. وكذلك رسائل متبادلة بينها وبين (باحثة البادية).

وتكشف رسائل من راسلوا مياً حقيقة العلاقات التي كانت تربط مي بمراسليها فضلاً عن كونها تكشف الكثير من الجوانب المجهولة في نفسياتهم وثقافتهم.

هناك مواضيع عديدة عالجتها مي في رسائلها منها:

١ ـ المواضيع الثقافية: في إحدى رسائلها إلى الدكتور يعقوب صروف تناولت دور الصحافة في معرض التعريف بالنشاط الثقافي والاجتماعي في البلاد فتقول:

«إنما أسألك: كيف يمكنني، أنا الجمهور أن أطّلع على حركة التأليف والترجمة في البلاد، في مختلف الموضوعات الفلسفية والعلمية والاجتماعية والتمثيلية والأدبية الخ؟ كيف يمكنني أن أعلم بصدور ما يهمني من الكتب، سواء كان اهتمامي بها اضطراراً للعمل وكسب الرزق، أم للفائدة الفكرية، أم للتفكهة وإرضاء الرغبة؟ إن رسائل الأخبار الكبرى هي الصحف السيارة، وكل الغاية منها إيصال الأخبار إلى الجمهور وإطلاعه على ما يجري في بيئته وفي العالم من الشؤون والحوادث. فإن لم تنقل لي تلك الصحف ما وجدت لنقله ونقل نظائره، فمن ذا يكون الرسول بين المؤلف الذي كتب للجمهور، وبيني أنا الجمهور الذي أتطلع إلى ما ينشر لي مؤلفي».

كما تعرِّف (الصحافة) تعريفاً بليغاً:

«الصحافة سجل الوقائع اليومية، والمرآة التي ينعكس عليها نفسية البيئة الصور المتتابعة التولد».

وتناولت من المواضيع الثقافية موضوع الملاحم والشعر القصصي الحماسي. ففي رسالة لها أرسلتها إلى الدكتور يعقوب صروف تحاول أن تميز بين الشعر الملحمي (Epique) وبين الشعر القصصي الحماسي الذي عرفه العرب.

وتخلص مي في هذه الرسالة إلى وضع حدٍ حاسمٍ لمسألة طالما تغنى بها بعض المغرضين على التراث العربي عندما خلقوا من عدم

توفر الملاحم عند العرب عقدة نفسية حضارية إن صح التعبير وفي ذلك تقول مي:

«ومن طبيعة العربي الهبوط إلى نفسه وتحليل ما يجول فيها من عاطفة وميل ورغبة ومفخرة، فإذا ما أقبل ينشد تغنى بما يهيجه من غضب وكيد وانتقام وحماسة وكرم ونخوة.

فكان مبدعاً شعر الحماسة والفخر، أو نظم المراثي أو زفر بما يسعر جنانه من وجد وحنين، فكان مبدعاً شعر الغزل والنسيب. وشعره الوصفي ينتمي دواماً إلى أحد هذين النوعين لأن الطبيعة العربية لم تهتم قط بالنظريات المجردة ولم تنزع إلا إلى الأشياء المحسوسة الملموسة. فجاء شعرها الفريد صورة صادقة لجوهرها الوجداني. وكان الشعر القصصي الحماسي عندها متفقاً وسليقتها الخاصة يجري على منهجها الخاص خاضعاً لجماله العربي الأنيق الخاص.

ولو قام أحد شعراء عصرنا يسرد تاريخ الأمة العربية لجاءت هذه العلواء المجيدة أعظم وأبدع إلياذة في تاريخ الأدب عند جميع الشعوب».

وتتابع مي:

«أثبت هذا الرأي ليس بصفته رأياً حسناً ولكن بصفته رأيي - كما كان يقول مونتاين. وقد يكون الخطأ نصيبي والصواب في جانب غيري. ولكن الحقيقة

كعبة جميع الباحثين فإنما إياها ينشدون في كل نفي وإثبات. ولو أردت اليوم كتابة ما دونته بالأمس لما أبدلت من الألفاظ الأساسية لفظة واحدة. ولو لم يكن كذلك من سبب سوى حمل الشاعر البغدادي على كتابة تلك الصفحات الممتعة النفسية الاثنتي عشرة في معارضتي لكفى».

وقد عالجت بعض المواضيع اللغوية..

ـ كان نتاج جبران موضوع العديد من مقالات مي فقد حوت رسائل مي العديد من آرائها في هذا النتاج، من ذلك رأيها في كتابي جبران «المواكب» و «المجنون» في رسالة وجهتها له بعد مقال نشرته في (الهلال) تعليقاً على كتاب المواكب وكان رسالة مي في موضوع هذين الكتابين ـ كما وصفها جميل جبر في كتابه «مي وجبران» أقسى لهجة وألذع نقداً. فبعد أن استنكرت استسلامه لنيتشه وطريقته في الكلام على الشهوات، ثار غضبها في الختام فقالت: «هذا هو المجنون، أهو أنت المجنون؟...».

وتعرض مي آراءها في مسرح توفيق الحكيم وأدبه في رسالة أرسلتها في ١١ يوليو سنة ١٩٣٤ وفي هذه الرسالة تتنبأ مي لتوفيق الحكيم، كما تنبأت لطه حسين، بمستقبل كبير، وفي ذلك تقول تعليقاً على مسرحيته «فتيان الكهف» فتقول:

> «أشعرني كتاباك بأن بيراندللو مصري يتولد عندنا وذاك من الشواهد على أن الحضارة الفكرية في مصر ماضية في التوغل. إذا ليس من هو أدرى منك بأن الفرق الجوهري (المشتمل على فروق لا تحصى بين الحضارة والافتقار إلى الحضارة) هو أن الافتقار إلى

الحضارة غرار واحد تطبع عليه جميع الشخصيات بينما الحضارة في ازدهارها تشبك كلاً من شتى الشخصيات في قالب مستقل. ونسيج من نوع خاص هي شخصيتك الجديدة الكثيرة التملص والتقلص.

> جديدة؟ بل هي قديمة أيضاً كالماء والهواء. قديمة كعناصر الفكر والشعور والفن. ويخيل إليّ أحياناً أن كل صورة صنعتها في كتابيك إنما التقيت بها في بعض أعمارك السالفة فجلت بها جولة الخبير في سحيق موفور الشجن والإغراء».

٢ ـ كذلك عالجت مي المواضيع العلمية في رسائلها. ومنها الرسالة التي أرسلتها إلى الدكتور يعقوب صروف سنة ١٩٢٠ تشير مي فيها إلى دائرة المعارف الفرنسية والمراسلات بين دالمبير وفولتير بشأنها.

٣ ـ أما المواضيع الاجتماعية فقد احتلت حيزاً كبيراً في مراسلات مي وفي طليعة هذه القضايا حقوق المرأة حيث يتجلى ذلك في رسائلها إلى ملك حفني ناصيف (باحثة البادية) كما في رسالتها عام ١٩١٢ وكذلك رسالتها إلى لطفي السيد التي كتبتها سنة ١٩١٤ بعد حفلة الأربعين التأبينية لفتحي زغلول باشا احتجاجاً على عدم دعوة المرأة للاشتراك في حفل التأبين وفي هذه الرسالة تدافع مي عن المرأة إثر طرحها سؤالها التالي: لماذا لم يكن للنساء نصيب في حضور حفل التأبين؟ وتستغرب مي أن يبخل على المرأة بحضور اجتماع يرفع نفسها إلى أسمى درجات التأثر المفيد، ويلفت عقلها إلى هيبة العلم وعظمة الفضل ويعلمها إجلال الوطن ورجال الوطن. وتختتم مي رسالتها بقولها إنه لو حضر النساء هذا الاجتماع لأخذن عنه أمثولة طيبة وحفظن

منه في نفوسهن أثراً جليلاً.

٤ ـ وهناك من الرسائل التي تحمل مشاعرها العاطفية كما رسائلها إلى جبران خليل جبران أو رسائل الصداقة كما في رسائلها إلى الريحاني ولا سيما في رسالتها في ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٩ حيث تقول:

«صديقي العزيز جار الوادي وسيده: نحن الآن في عشية عيد العذراء، عنيت عيد انتقال ستنا مريم إلى السماء، وناقوس جيراني الرهبان آخذ في القرع والترنم يدعو إلى «زياح» المساء..

وهل في وسعي وأنا في مصر أن لا أتجرد الساعة ـ مرغمة ـ من الشعور بوجودي هنا لأحسّ أني في «فريكتكم» الخالدة مقيمة، أجلس على سطيحة عمو أبي سلمون، ظهري إلى صنين والجرد جهتي أشهد عنده وداع الشمس لهذه الناحية من الأرض، على وقع رنين الأجراس...».

وهناك أيضاً في بعض رسائلها تعتمد مي على شكل الترسل الذاتي كما في رسالة وجهتها إلى فتاة تحت عنوان «أحرصي على قلبك» في «سوانح فتاة» وفي هذه الرسالة تناجي مي نفسها معبرة عن القلق الذي يملأ كيانها بالذات إذ إن تلك الفتاة التي تخاطبها مي في رسالتها ليست سوى مي بالذات والرسالة غايتها الترويح الوجداني:

«... أخبريني ما بك، أيتها الفتاة! لماذا أراك عند نافذتي ترقبين ما ليس بالموجود وتشتاقين ما ليس بالبادي؟ وإذا تحولت عنك إلى مرآتي رأيت هناك

وجهك مفجعاً حزيناً؟.

أهو أملٌ غزا نفسك فثقل على فؤاد منك اعتاد القنوط؟.

أم قرب تهليل الأمل يأس ينتحب وشعور بالفشل طالما خالط الرجاء؟.

جميع الأشياء انتعشت انتعاش من خرج من أزمة وانفرج وأنت أي علة تصنك فتلوبين وتتأوهين؟.

ألا احرصي على قلبك أيتها الفتاة!

جاء المساء مرة أخرى، جاء المساء وتبعه الليل وعيناك قرب السراج جامدتان جمود من يتأمل جثة فأشعر بأن شيئاً فيكِ أمسى جثة.

لقد استسلمت لجمال المساء فطعنك المساء بسكين منه سرى يقطر دماً وظلاماً.

أخضعت نفسك لسحر الغروب ولم تحرصي على قلبك! أما الآن وقد فرطت به فاحرصي على الجرح المنفتح فيه.

احرصي على جرح قلبك، أيتها الفتاة!».

إنه لون فريد من الترسل مع الذات لا نظير له في أدب الترسل في العالم. . وحبذا لو جاءت مي بمثله الكثير.

.. جبران في حياة مي زيادة..

أحبت مي زيادة جبران خليل جبران، دون أن تراه أو تسمعه أو تتحدث إليه.. أحبته وراسلته وما عرفته إلا بالخيال وعبر الكلمات المتبادلة.. ومات قبل أن تراه، ذلك هو سر الضحكة الأليمة التي افترّت عنها شفتاها لحظة أنشدت أناشيد الحب!.. فكان الملل وكان الفراغ:

«أتعبني الملل، فهمت على الجبل، ومضت الساعات بلا هدفٍ ولا غاية.. كل ما حولي صامت، وكل ما فيَّ صامت. شئت أن أخدع الملل فنهضت.. وأنشدت أناشيد حبّ، فأحسست شفتي تفترّان عن ضحكة أليمة، ما عرفت مغزاها»[1].

عمدت مي في مراسلاتها إلى جبران أن تجذبه إلى عالمها

---

(١) مذكرات مي زيادة.

الروحي، أن تخرجه من جو أميركا حتى إذا وفقت إلى اجتذابه ذاك وإخراجه هذا، حملته على السير في الحياة المشتركة. .

وتواصلت الرسائل بينهما لفترة طويلة وكانت رسائلها إليه تخفي حيناً عواطفها وحيناً تفضحها. . حتى عندما كانت تدعوه إلى حصر مواضيع المراسلة بالقضايا الثقافية كما في رسالتها عام ١٩٢٠ في ديسمبر حيث تقول:

«أنت قيدتني (مذنبة) في دفترك وقمت تشكو لأني كلما حدّقت في شيء أخفيه وراء القناع، وكلما مددت يداً أثقبها بمسمار. نعم فعلت ذلك متعمدة. تعمدت قطع تلك الأسلاك الخفية التي تغزلها يد الغيب وتمدها بين فكرة وفكرة وروح وروح وصرت أحرّف المعاني وأمسخ الأسئلة وأضحك عند الكلمات التي تملأ العينين دموعاً. . وهل كان لديّ وسيلة أخرى لأحوّلك عن هذا الموضوع وأذكرك أني وحيدة أبويّ؟.

تعمدت ذلك خصوصاً لأوفر على نفسي عذاباً هي في غنى عنه ولأتحايد كل كلمة تقربني من ذلك الموضوع الذي ملأ روحي شوكاً وعلقماً في هذه السنوات الماضية. ففهمت ما أريد وإنما في غير معناه الحقيقي وفهمته على وجه لم أقصده».

وتصل العواطف بينهما إلى الأوج في الرسائل المتبادلة عام ١٩٢٤ إذ تقرأ في إحدى هذه الرسائل عبارات تفضح عواطف مي منها:

«ما معنى هذا الذي أكتبه؟ إني لا أعرف ماذا أعني به،

ولكني أعرف أنك محبوبي وأني أخاف الحب، إني لأنتظر من الحب كثيراً فأخاف أن لا يأتيني بكل ما أنتظر. أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير ولكن القليل في الحب لا يرضيني. الجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير».

ورغم الحب الذي نشأ بينهما فإن رسائل مي وجبران لم تكن مجرد رسائل عاطفية فقد كانت تتناول بعض الأمور الثقافية.. ففي رسالة لها إلى جبران في ١٢ أيار سنة ١٩١٢ يمتزج رأي مي في كتاب «الأجنحة المتكسرة» لجبران بمناقشتها له بموضوع الزواج.

وأحياناً تختلط المسائل العاطفية بنوع من الذكريات واليوميات كما في رسالتها في ٩ ك٢ سنة ١٩٢٥ التي تروي له فيها كيف قصت شعرها قَصة غلامية.

تذكر وداد سكاكيني: «إن الرسائل المتبادلة بين مي وجبران قد تناولتها أيد كثيرة بعد وفاة الأول ومحنة الثانية ولم ينشر بعضها إلا حوالى سنة ١٩٣٨ وما بعدها ثم ذاع خبرها وشغلت الصحافة العربية بذكرها وضياع كثير منها وفتحت للأقلام منافذ جديدة للبحث في حياة جبران ومي وتأويل ما كان بينهما، لكن أكثرها كان غير جدي، ولا مثالي في الدراسة والتأليف بل كان من هذه الأقلام ما لم يتورع أصحابها عن اصطناع بعض الرسائل في حكايات غرامية أشبه بالروايات والمغامرات بغية الترويج للمجلات المتجددة والكاسدة دون رعاية لكرامة هذين الأديبين اللذين ظلمهما بعض الأصدقاء بعد الوفاة كما ظلم كل منهما نفسه في الحياة».

مي وأسلوبها الأدبي:

إن أشعار مي ومقالاتها التي تتضمن خواطرها الحميمة ومذكراتها وقصصها، تجمع بين طرافة الأسلوب وتوقُّد العاطفة والخيال، وهي من الأدب الذي يعيش ولا يذهب بقيمته مع مرور الزمن.

وقد أجمع كبار الأدباء في مصر على الإعجاب بأسلوب مي واستحسان ما فيه من تجديد. منهم العقاد حيث يقول في نقده لكتابها «الصحائف» إنها «كاتبة مطبوعة». أما يعقوب صروف فيقول في مقدمة «باحثة البادية» يثني على الكتاب بقوله: «إنها جارت أكتب الكتاب الأوروبيين في هذا النوع من البحث والانتقاد.. وإذا كان بعض استعاراتها مقتبساً من لغات أوروبية فذلك ليس بدعاً في العربية، بل قد سبق إليه جماعة من أساطين الكتّاب مثل الجاحظ والصابي، وابن المقفع وابن خلدون فزاد في غنى العربية بما أضافوا إليها»[1].

---

(١) مقدمة «باحثة البادية».

ويقول منصور فهمي: «إنني أعدّ الطريقة التي جرت عليها مي في كتابتها مثالاً للكتابة الراقية» ويضيف «كان لهذا الأسلوب المتميز، المختارة ألفاظه المنمّقة عباراته، جرس جميل في أذن السامع ووقع حسن في نفس القارىء، وكثيراً ما كانت توفّق مي في هذا السبيل».

(ولمي طريقتها في المهاجمة والتهكم والنقد). فقد كان لها بعض نظرات وآراء في الإصلاح الاجتماعي وخاصة فيما يتصل بالمرأة، وباللغة والشرق.

وكان لا بد لها لتوجيه إصلاحها في الطريق الذي يضمن له النجاح أن تهاجم عادة سخيفة، أو تنحى باللائمة على أمر غير مقبول، أو تنتقد ما هو موضع للانتقاد. ولكن مياً امرأة قبل أن تكون كاتبة، وفتاة رقيقة قبل أن تكون ناقدة عنيفة، ولهذا كان نقدها رقيقاً وكان لومها وعتابها لطيفاً رقيقاً، وكان تهكمها لا يجرح شعوراً ولا يؤذي إحساساً ولا يمسّ كرامة. وكانت سخريتها ـ إذا سخرت ـ هي ضرورة المفضي الكريم لا عمل الشامت اللئيم.

سمعت رجلاً عربياً يزعم اللغة العربية ثقيلة على لسانه، وأن بعض حروف الحلق فيها كالحاء والخاء يؤذي السمع والحلق! فعزّ ذلك الانسلاخ البغيض على مي.. وكتبت مقالاً عنوانه: «تكلموا لغتكم» وظلت تلذع هذا العربي بسخريتها العنيفة قائلة: (إن من الطراز الحديث المكرر ثلاثاً، فتح فاه فتحة أنيقة تليق بالقرن العشرين.. وطفق حضرته يتكلم الفرنساوية جاعلاً الراء منها غيناً غناء)[1].

---

(١) بين الجزر والمد.

وتعتب على المجمع اللغوي القديم لركود طرأ على حياته ونشاطه فتقول: «وصلنا إلى المجمع اللغوي الذي تتخاصم صحف العاصمة لأجله وهو في غيبوبة الأحلام».

وحدث أن وقع ثلاث سرقات في يوم واحد من أيام القاهرة وكانت هذه الحوادث موضوعاً للحديث والتندر والتفكهة في الصحف وعلى ألسنة الناس، فتناولت مي هذه الحوادث بنقد أليم رفيق لرجال الشرطة قائلة[1] : (والبوليس لا توقظوه! إنه نائم بالسلامة كطفل بريء...).

وشهدت القاهرة في منتصف سنوات الحرب العالمية الأولى ارتفاعاً في عدد حوادث السرقات، من البيوت ومن الدكاكين على السواء.. وحركت هذه الظاهرة شعور أديبتنا الذكية اللماحة، فكتبت مقالاً بعنوان «الحركة بركة» تسخر فيه من رجال البوليس الذين لا يؤدون واجبهم على أكمل وجه، وتتهكم منهم على طريقتها البارعة في السخرية والتهكم: «... أما البوليس فلا اعتراض على وقفته: يقف في النهار بكرامته وعلى مقربة منه تتخاصم الناس، وتتصادم المركبات، وهو ـ ولله الحمد ـ واقف بالسلامة، منصوب قوامه إلا من طرفيه، كالألف المتقنة الصنع، وهذا يزيده شبهاً بإله الحدود القديم عند الرومان!.. أستغفر الله، لست أعني أنه يظل واقفاً كالتمثال! كلا، ثم كلا! إنه يمشي أحياناً، ويرفع يده مسلماً على بعض المارين في المركبات، وطرف حديث مع الإخوان لا يزعجه، بالعكس. وهو مع ذلك متمم أمور وظيفته، فإذا رأى قبيل المساء حوذياً لم ينور شمعتي

---

(١) سوانح فتاة.

مركبته صاح إله الحدود الجديد، باسطاً ذراعيه إلى الأمام وقال: نور يا أسطى!!).

هذه كانت مي رحمها الله في نقدها وسخريتها وتهكمها ودعابتها، كانت ناعمة، رقيقة لينة، كالشوكة اللينة، تخز ولكنها لا تدمي[١].

---

(١) محمد حسن / مي أديبة الشرق والعروبة ٨٩.

ـ نحو النهاية ـ

بعد أن فقدت مي الكثير من أصدقائها ووالدها ووالدتها بعد ذلك ثم لحق بهم جبران خليل جبران. . تخلت عن كل ما يجعل للوجود معنى وقيمة وقبعت في دارها وحيدة منعزلة تهيمن عليها الوساوس، وسرى إلى قرارتها مرض نفسي عقلي أكبر الظن أنه ذلك الداء الذي يسمونه في علم النفس «إرادة الموت».

لقد انطوت في سريرتها دون أن تعي أو تشعر على ضرب من التبرم بالوجود لا يصدّ أثره السيء في كيان النفس ونفس المرأة خاصة إلا أحد أمرين: إما إيمان ديني عميق يستلها من وساوسها، ويودع كيانها الأمن وسط الظروف الراعبة أو عاطفة طاغية تشدّها إلى الحياة شداً لا فكاك لها منه، وتحملها على الصبر والتضحية. وهذه العاطفة تحملها المرأة عادة نحو ابن أو ابنةٍ من لحمها ودمها ويعسر أن تحملها نحو كائنٍ آخر.

وعادت مي إلى لبنان وأودعت مشفى «العصفورية» وما كادت

مي تعرف أنها تحولت في نظر الناس إلى مجنونة يجري عليها ما يجري على المجانين حتى جنت فعلاً، ضمن جدران المصح، وحاولت أن تقتل نفسها خنقاً ولكن هذه الجُنّة لم تكن في واقع الأمر سوى ثورة منها لكرامتها، وتمرد على نظرة الآخرين إليها.

وشاع في الناس أن مي تعرضت لاضطهاد لا يجوز السكوت عليه وأن الذين اتهموها بالجنون فإنما لأغراض في نفوسهم لا تمت إلى الحقيقة بصلة. وبدأ بعض المقربين إليها يشنون حملة صحفية لإنقاذها ووفقوا بذلك ونقلت من العصفورية إلى مستشفى ربيز في بيروت. وهناك أضربت عن الطعام. وصرحت لمجلة (صوت المرأة) قائلة: «أضربت عن الطعام لأني اشتهيت الموت بعد ما لاقيت من اضطهاد وعنف، ورفضت استقبال الناس لأن الذين زاروني كانوا يحدثونني أحاديث تدل على اعتقادهم بجنوني».

لقد اهتمت مي بالنظرة التي يوجهها إليها الآخرون بسبب اضطرابها العميق.

وانتقلت مجدداً إلى القاهرة ثم جاءها نبأ وفاة صديقها (فليكس فارس) فعاد إليها مرة ثانية مرضها الأصيل (إرادة الموت) وقويت أعراضه في السابع عشر من شهر تشرين الأول ١٩٤١ فامتنعت عن تناول الطعام والاتصال بالناس ودامت على هذه الحال ثلاثة أيام متوالية حتى إذا كان ليل العشرين من ذلك الشهر، ارتمت على سريرها وهي لا تقوى بعد على الحراك.. وأسلمت الروح دون أن يعرف بها أحد.

المراثي

أقيمت حفلة تأبين لها بعد نحو شهرين من وفاتها وذلك بسبب الظروف التي كانت تمر بها البلاد عند وفاتها . .

وقد تحدث في الحفل الأحياء من عارفيها، تحدثوا عن فضلها وأدبها ومآثرها.

وقد وقف الشاعر خليل مطران في تأبين مي يقول من قصيدته :

أقفــر البيــت أيــن نــاديـك يــا مــ
ــي إليــه الــوفــود يختلفــونــا
صفــوة المشــرقيــن نبــلاً وفضــلاً
فــي ذراك الــرحيــب يعتمــرونــا
فتســاق البحــوث فيــه ضــروبــاً
ويــدار الحــديــث فيــه شجــونــا
وتصيــب القلــوب وهــي غــراث
مــن ثمــار العقــول مــا يشتهينــا

ويقول العقاد في مرثيته الشعرية:

أين في المحفل «مي» يا صحاب؟
عودتنا ههنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجناب
مستجيب حين يدعى، مستجاب
أين في المحفل «مي» يا صحاب؟
سائلوا النخبة من رهط الندى
أين «مي» هل علمتم؟ أين مي؟
الحديث الحلو واللحن الشجي
والجبين الحر والوجه السني
أين ولّى كوكباه؟ أين غاب؟
أسف الفن على تلك الفنون
حصدتها ـ وهي خضراء ـ السنون
كل ما ضمته منهن المنون
غصص ما هان منها لا يهون
وجراحات، ويأس، وعذاب
شيم غر رضيات عذاب
وحجى ينفذ بالرأي الصواب
وذكاء ألمعي كالشهاب
وجمال قدسي لا يعاب
كل هذا في التراب. آه من هذا التراب!
كل هذا خالد في صفحات
عطرات في رباها مثمرات
إن ذوت في الروض أوراق النبات
رفرفت أوراقها مزدهرات

وقطفنا من جناها المستطاب

حي «مياً» إن من شيع مياً،
منصفاً، حيا اللسان العربيا
وجزى حواء حقاً سرمدياً
وجزى مياً جزاء أريحيا
للذي أسدت إلى أم الكتاب

للذي أسدت إلى الفصحى احتساباً
والذي صاغته طبعاً واكتسابا
والذي خالته في الدنيا سراباً
والذي لاقت مصاباً فمصابا
من خطوب قاسيات وصعاب

أتراها بعد فقد الأبوين
سلمت في الدهر من شجو وبين
وأسى يظلمها ظلم الحسين
ينطوي في الصمت عن سمع وعين
ويذيب القلب كالشمع المذاب

أتراها بعد صمت وإباء
سلمت من حسد أو من غباء
ووداد كل ما فيه رياء
وعداء كل ما فيه افتراء
وسكون كل ما فيه اضطراب

رحمة الله على «مي» خصالاً
رحمة الله على «مي» فعالا

رحمـــة الله علـــى «مـــي» جمـــالاً
رحمـــة الله علـــى «مـــي» سجـــالا
كلمـــا سجـــل فـــي الطـــرس كتـــاب
تلكـــم الطلعـــة مـــا زلـــت أراهـــا
غضـــة تنشـــر ألـــوان حـــلاهـــا
بيـــن آراء أضـــاءت فـــي سنـــاهـــا
وفـــروع تتهـــادى فـــي دجـــاهـــا
ثـــم شـــاب الفـــرع والأصـــل، وغـــاب
غـــاب والـــزهـــرة تـــؤتـــي الثمـــرات
ثمـــرات مـــن تجـــاريـــب الحيـــاة
خيـــر مـــا يـــؤتـــى حصـــاد السنـــوات
بعثـــرتهـــن الـــريـــاح العـــاصفـــات
ورمتهـــن تـــرابـــاً فـــي خـــراب
ردّ مـــا عنـــدك يـــا هـــذا التـــراب
كـــل لـــب عبقـــري أو شبـــاب
فـــي طـــوايـــاك اغتصـــاب وانتهـــاب
خلعـــا للشمـــس أو شـــم القبـــاب
خلقـــا، لا لانـــزواء واحتجـــاب
ويـــك! مـــا أنـــت بـــرادٍ مـــا لـــديـــك
أضيـــع الآمـــال مـــا ضـــاع عليـــك
مجـــد «مـــي» غيـــر مـــوكـــول إليـــك
مجـــد «مـــي» خـــالـــص مـــن قبضتيـــك
ولهـــا مـــن فضلهـــا ألـــف ثـــواب

وهكذا انتهت حياة الأديبة والشاعرة مي زيادة تاركة للأدب

العربي نتاج أيام طويلة حاولت فيها أن توفق بين ثقافتي الشرق والغرب وأن تساند حركة النهضة النسائية بجميع أساليب الأدب من مقالة وخطابة وشعر ونثر.. انطفأت تلك الشمعة التي أضاءت لنا الطريق..

ـ مؤلفاتها ـ

أولاً: المطبوعة:

١ ـ باحثة البادية أو ملك حفني ناصف ـ مصر.

٢ ـ رسالة الأديب إلى الحياة العربية.

٣ ـ رجوع الموجة ـ رواية ترجمتها عن الفرنسية ونشرتها في مجموعة: «روايات وقصص مترجمة ومقتبسة».

٤ ـ ابتسامات ودموع أو الحب الألماني (تأليف مكس مولر).

٥ ـ بين الجزر والمد: صفحات في اللغة والأدب والحضارة.

٦ ـ سوانح فتاة (مجموعة خواطر وآراء في الحياة).

٧ ـ الصحائف (مختارات من مقالاتها في شتى المجالات) نقده عباس محمود العقاد في «مطالعات الكتب والحياة».

٨ ـ ظلمات وأشعة.

٩ ـ كلمات وإشارات ـ (مجموعة من الخطب الأدبية في مواضيع شتى اجتماعية وعلمية وفلسفية).

١٠ ـ المساواة. نقده الأمير شكيب أرسلان في مجلة المجمع العلمي العربي.

١١ ـ الحب في العذاب ـ رواية مترجمة عن الإنكليزية.

١٢ ـ غاية الحق ـ محاضرة ألقتها في الجامعة المصرية بطلب من جمعية فتاة مصر ـ ١٩٢١.

١٣ ـ الرسائل ـ نشرتها السيدة مادلين أرقش ـ ١٩٤٨ نشرها جميل جبر.

١٤ ـ أزاهير حلم ـ ديوان شعر بالفرنسية، نشرته باسم مستعار.

ثانياً: المخطوطة:

تركت مي مؤلفات لا تزال مخطوطة، منها ٣٠ رسالة أو بحثاً تتراوح صفحات الواحدة منها بين صفحة و٢٥ صفحة، وهي موزعة كما يلي: قصص (٤) ـ روايات (٣) ـ دراسات أخرى ومحاضرات (١٦) ـ أدب (٥) ـ شعر (١) بالفرنسية.

مختارات

ابتسامات ودموع

مقدمة الطبعة الثانية

أراني راغبةً في تقديم الطبعة الجديدة بكلمة تشير إلى كيفية تعريب هذا الكتاب، وتوضح السَّبب الذي حملني على استبدال اسمه الأصلي «الحبّ الألماني» Seutsche Liebe باسم «ابتسامات ودموع» الذي عُرف به لدى قرّاء العربية. وأن أشرح ما يتناول هذه الطبعة من تغيّر يبدو في كل جملةٍ تقريباً، ومن زيادةٍ أتيت بها في صفحاتٍ كثيرة من أغلب الفصول. وأن أشفع هذه التفاصيل بمجملٍ عن واجبات المعرّب وحقوقه، وهو بحث يتحتّم إخراجهُ على كلّ مَن ألمَّ من الأدباء بآداب العرب في هذه السنوات التي شاع فيها نقل آداب أوربا إلى لغتنا شيوعاً كبيراً.

على أني لا أكاد أذكر الترجمة الأولى إلاَّ ويأخذ محيطي بالتلاشي وكأن القلم يسقط من يدي لأحدّق في الصحيفة البيضاء كأنها آلة سحرية تستهوي الوسيط وتسطو عليه أشرازها. ولا يطول حتى تنتقش عليها صورة المكان الذي أظلّتني يومذاك سماؤه ودوت حولي أصواته. هاك

حفيف الأوراق، وتصفيق الأجنحة، وتغريد الأطيار على الغصون. ألا فاصغ إلى وقع أقدام السائرين في الطريق الحمراء الضيقة المتلويّة بين أشجار الصنوبر صعوداً إلى قمةٍ أشرفت على المرتفعات والمنخفضات يسرةً ويمنةً وشرقاً وغرباً. وانظر جانباً إلى صنّين وقد أثقلت ذروته ثلوجٌ حوّلها انعكاس الأشعة ثغراً نورانياً يسرُّ إلى صوب الفضاء بما توصله إليه أصداء الغبراء من شكايةٍ وتأوّهٍ. تنبثق من جانبه سلسلة آكام تتساند مستديرة، مستطيلةً، ناشذةً، وتظلُّ في انتقاصٍ وتصاغرٍ على انسجام وحسنِ دراية حتى تسجد بواقي الصخور منها على أقدام الشاطىء. كأنّ أعالي صنين أنفذتها برسالةٍ إلى البحر لتعود بالجواب عليها والبحر، آه! ترى ماذا يقول ذلك الأزرق الأفيح المائج بهدوءٍ ودلالٍ، كأنه أرجوحة الأثير تهزّها أيادي آلهة الهواء لتنوّم فيها طفلاً عجيباً دهشت بجماله السماوات وافتتنت الأرضين بغرامه؟.

نعم، ها أنذا في ظهور الشوير بلبنان، ذلك المصيف الهنيء. نحن في صميم القيظ وقد تقاطر المصطافون حتى ضاقت بهم المنازل والفنادق. والجماعات التي تباينت أفرادها علماً وتهذيباً وارتقاءً. وتنافرت عاداتٍ ومشارب وأطماعاً، ها هي تعيش تحت سقفٍ واحدٍ وتتبع في أمورٍ جمّة نظاماً فرداً وضع لضيوف النزل جميعاً. ومن هذا الاجتماع بالغرباء، ومحاذاتهم أياماً وأسابيع وشهوراً، والجلوس وإياهم حول مائدةٍ واحدة مرةً بعد مرة، وحدةٌ تنشأ وتتثبت بالتكرار، فضلاً عن خبرةٍ موفورةٍ لدرس أخلاق الناس وتمرينٍ ميسورٍ في أساليب المعاملة والإرضاء.

بيد أني بعد الأحاديث المسلّية والضحك والائتناس أظلُّ شاعرةً بفراغٍ واسعٍ، أظلُّ متسائلةً ماذا يعرف أولئك المتنادمون المتسامرون المغتابون ـ من بعضهم بعضاً، أظلُّ تائقةً إلى الوحدة والاختلاء تحت

أشجار الحرج الصغير. لذلك سعيتُ في أن يُبنى لي هذا الكوخ الضيّق من خشب الغصون ويسقف بالأعشاب اليابسة، وليس في داخله من حطام الدنيا سوى مقعد وطاولة نُضّدت عليها كتب قليلة. وإنما دعي كوخي «الكوخ الأخضر» لأنيْ جلّلتُ جدرانه من الداخل بنسيجٍ أخضر. عدا عن أفنانٍ مخضوضبة حَنَتْ عليه. وخضرةٍ غضّةٍ أحدقت به من كل جانب. هنا تعرّفتُ بمكس مولر وبكتابه الجميل. تعرَّفت به في الخلوة لأنَّ الأرواح الكبيرة تنكمش في المحافل العادية ولا تتجلَّى إلاَّ في العزلة لمن كان على استعدادٍ لتلقّي فيض بهائها.

* * *

كنتُ شرعتُ أدرس الألمانية في القاهرة إبان الشتاء ولم ينلني منها سوى عشرين درساً أو أكثر قليلاً. ولمَّا تزدوت بالكتب قبيل الرحيل أضفتُ إلى حقيبتي كتاباً ألمانياً لا غير، هو «الحب الألماني» هذا. وقد وقع عليه اختياري لأن السيدة البروسية التي تتلمذت لها ذكرته ممتدحةً أسلوب مكس مولر المشبع فكراً ومعرفة على سهولته ورشاقته. ونسبت هذه الرشاقة وتلك السهولة إلى كون المؤلّف شاعراً بفطرته ووراثته رغم اشتهاره بالعلم والبحث، وإلى كونه إنجليزياً بوالدته كما صار بعدئذٍ إنجليزياً بزوجته وباستيطانه إنجلترا أعواماً طوالاً. فكان له من إجادة اللغة الإنجليزية ومعالجتها والتأليف فيها مساعد قويّ في تجريد جملته الألمانية من التطويل والصعوبة والإبهام الملازم لها غالباً عند كتَّاب الألمان، لا سيما العلماء والفلاسفة.

أنشأتُ أتصفّح في عزلة «الكوخ الأخضر» ولم أفرغ من الفصل الأول حتى تملكتني روحه الشعرية الفلسفية وأرهَفَتْ ذهني فتمكنتُ من الإحاطة بالمعنى العام وإن فاتني من معنى المفردات كثير. وما أتيتُ

عليه إلاَّ وعدتُ أراجع قراءته مرّاتٍ حتى ابتهجت بمحاسنه نفسي المنفردة. وعلى قصر باعي بالعربية التي كنت نشرتُ فيها مقالات ابتدائية قلائل، ومع أني لم يكن لديَّ معجم ألمانيّ، استعنتُ بالقلم والقرطاس لأرسم بلغتي تلك الخطوط البديعة؛ ولو كان لي مقدرة مكس مولر الفكرية والإنشائية لما أفصحتُ عن حركات النفس بسواها. وقد قال لي أحد الأدباء عندما نشرت «ابتسامات ودموع» في ذيل «المحروسة» في الشتاء التالي، قال «أُساءلُ ذاتي ساعة أقرأ ذيل «المحروسة» أأنتِ ناقلة مكس مولر إلى العربية أم هو ناقلك إلى الألمانية؟». في هذه الكلمة التي تخالُ تملّقاً للوهلة الأولى، حقيقةٌ أوليّة هي كلّ قوة الكاتب الوجداني الذي إنما نحكمُ له بالتفوّق لأنه أحسن التعبير ليس عمّا يشعر به هو الكاتب، بل ما نشعر به نحن القرّاء. وكيف لا نحكمُ له بذلك وهو الغريب الجاهل أسرار قلوبنا قد اطّلع على خفايانا وبسطها لنا وللعالمين. وكتاب «ابتسامات ودموع» من هذا القبيل آية سحرٍ وبراعة. لا يقصر على الوصف بل هو مهبط وحيٍ للنفوس الحسّاسة.

كان ذلك في صيف ١٩١١ وبي تيقظ الفتاة الأول، واستفسارها الصامت إزاء المسائل الكونية والعمرانية والروحية، وإعجابها المنتبه المتحفّز للاهتمام والتحمّس. وبي كذلك خجلها وحيرتها وتردّدها.

وكنتُ كئيبةً. كنتُ أكتئب لغير سبب، وأكتئب للعوامل الدافعة بالاجتماع، الشاغلة أفراده ليلاً ونهاراً. حتى إذا احتميتُ بحمى الطبيعة وألقيتُ عليها اتكال روح رافقت الكآبةُ حبي واتكالي. الكآبة خاتمة شعور الإنسان إزاء الجمال والقباحة، والخير والشر، والعدل والظلم، والكره والحب، والفوز والخذلان إليها تنتهي حركات التأثّر في جميع حظائر النفس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام

الدامس. أهي ناتجةٌ عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم وبعجزه عن تحويل الأشياء عن مجراها؟ قد يكون. ولكن الواقع أن التنهّد والأسى نهاية كل عاطفةٍ وكل فكر، كما أن كل عمرٍ بزي يُختمُ بإرسال الزفرة وإسبال الجفون.

كنتُ قبلئذٍ أسير لا ألوي على شيء، إن وقعت عيني على شخصٍ أو طرق سمعي موضوع نظرتُ في هذا وذاك نظرة استخبارٍ سطحيّ. أما هناك فطفقتُ أُلقي على نفسي أسئلة منطلقة من جهلي المتعطش إلى الارتواء. من أنا؟ ما هو موقفي في الدنيا؟ لماذا تزعجني بعض الأحاديث، وتسخطني بعض الوجوه في حين أرتاح لأحاديث أخرى وتجذبني وجوهٌ وغيرها؟ لماذا أحبُّ هذه ولا أحبُّ تلك؟ لماذا ينفث هذا في روعي وجوب احترامه فأسعدُ بتوجيه عاطفةٍ جليلةٍ إلى موضوع يليق بها، بينا ذاك الآخر لا يلهمني غير الهزؤ والامتهان؟ لماذا يفرحني الناس وأُفرحهم؟ لماذا يؤلمني الناس وأولمهم؟ ومن أين لي ولهم هذه القدرة العميقة النافذة؟ أسئلة نقضي العمر ناشدين عنها أجوبةً كثيرة ولا نفوز قبل الموت بالجواب الشافي. وهكذا صار كوخي الأخضر سجناً اختيارياً، وشرفتهُ نافذةً مفتوحة على ميدان العجائب والغرائب وقد تسنّى لي أن أستعرضها وأتفحصّها بفكري سائلةً عن ماهيتها دون أن يكون ثمّة سامع أو مجيب.

الفكر! ما أجذب الفكر إذا هو مُزج بطلاوة العاطفة وخيَّمت عليه أوشحةُ الخيال! عشتُ السنوات الأولى من حياتي دون تفكير، وها قد غدا الجناح الملوَّن بألوان قوس السحاب يضرب جبهتي ليفسح له فيها وكراً، فصار كل موضوع، وكل شخصٍ، وكل مشهدٍ طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء وردية، ذهبية، فضية، مادية تحوم حولي تارة، وطوراً تجثم فيَّ متعاونةً مع ما في الكتاب على إيصالي إلى روح الإنسانية.

فأكاد أسمع دقات قلبها وصدى أنينها فأدرك أنها شقية بجهلها واضطرابها وهمومها، وإنّه قُدِّر على المختارين من بنيها أن يتألموا أضعافاً لأنهم السابقون إلى مقاتلة المجهول، وكجميع الطلائع يتلقّون ضربات المصادرة والمقاومة. فلا تضعف عزائمهم، ولا تكلّ أقدامهم، ويثابرون على تلمّس السبيل في حالك الظلمات، ويسيرون إلى الأمام حاملين غنيمة الجهود الإنسانية والثقة بتحقيق الآمال.

* * *

والطبيعة؟ يا لاستهواء الطبيعة وقد انتشرت الأشجار والصخور على الجبال والوهاد فرقصت هناك الأشعة وانسلَّت هنالك الأظلال! يا لخشوعها وقد تجمَّعت منازل القرى حول قبة الأجراس المنتصبة كالمسلَّة، بل هي قامت في الوسط ككاهن مدَّ يمينه نحو العلاء مبتهلاً وجثت حوله الرعية خاضعةً ضارعةً! يا لبراعة الطبيعة بالتنوّع في لبناني الجميل! لقد تصرَّفت بجميع فنون الجمال فهي منه كل يوم في حلّةٍ جديدةٍ وهيئةٍ طريفة. فساعة تغرقُ الكائنات جميعاً في أوقيانس ضياءٍ يبهر الأنظار ويذهل العقول؛ وساعةً تزحف كتائب الضباب المتراصّة من أطراف البحار وأقاصي الآفاق وتهجم فيالق السحب المتكاشفة من أقاصي الآفاق فتكتسح ما قام أمامها وتبسط رواقها الرمادي في الهواء، كأن العالم في دوره السديميّ. ويعتدل النور والحرارة يوماً، ويبرز روح التيقظ والكتمان فتصح ألياق كل نبتٍ، وكل قطرة ماء، وكل ذرة هواء، شاعرةً بسرّ الوجود الخطير، تؤيّد بحركتها اللطيفة ضرورة مساعدتها وحقيقة كيانها؛ ويخال الهواء حساساً كقلب الولهان داوياً كالنحاس المجوّف. وآناً تبدو خطوط الموجودات ونبرات الأصوات بوضوح غير عادي، وتنمو روعة الأشياء كأنها كبرت واتسعت، وربضت في مجاهلها الأهوال باتفاقٍ فجائيٍّ بين آلهة القدر. فيتولّاني افتتان به

ينقلب الزمن والمسافة سائلاً متحركاً أو عباباً متموّجاً يحملني تياره إلى حيث لا أدري من عوالم الخيال؛ شأن الحياة بالإنسانية الضعيفة المسافرة، الإنسانية التي تجهل الغرض من تحركها ووجودها ولا تفتأُ تذوب شوقاً إلى بلوغ غايةٍ تزعم الإحاطة بها وهي في الواقع لا تعلم ما هي!.

وكم خلت القوة الحيوية غباراً ذهبياً أو سيّالاً أثيرياً منبعثاً من البحر والجبال والكائنات جميعاً؛ وكم عبدتُ الطبيعة عبادةً حارّةً خاشعةً كعبادة المتديّنين والشعراء والمتيّمين، أولئك الذين يقدّسون الحياة خارجاً عن أشخاصهم ومحصورةً في آلهٍ، أو رمزٍ، أو إنسان، وكم ملأت الدموع عينيَّ شكراً للحياة، شكراً للطبيعة، شكراً لجميع الموجودات، شكراً لهذا الكتاب الذي تتهادى بين سطوره خيالات اليأس والأمل والبكاء والابتسام والحبّ والموت واللانهاية.

أظنني قلت في مطلع الكلام إن القلم سقط من يدي، وكان وهماً. ها هو القلم يجري على الصحائف قليلاً قليلاً مستحضراً تلك الساعات تباعاً كما تتعاقب الصور المتحركة على غطاء المرسحِ، وما الألفاظ سوى رسوم إيمائية لحقيقتها. غير أن النفس تدّخرها ككنوزٍ ثمينة لأنها كبيرة الشأن في التطوّر الروحي والفكريّ مني.

«الحب الألماني»؟ كلا، ليس هذا الكتاب حبًّا ألمانياً فقط بل هو خلاصة بسمات الإنسان وعبراته. فسميتُه «إبتسامات ودموع». فإن كان ذلك تزييفاً لفكرة المؤلف الواجب احترامها على كلّ مترجم، فهو صادق من حيث اقتناعي الخاص، أمين للصورة التي ارتسمت منه في نفسي.

* * *

ومرَّت السنون وشاع الكتيِّب وكادت نسخه تنفد منذ ثلاثة أو أربعة أعوام فحال دون طبعه اعتقادي بوجوب إعادة النقل من جديد. لأني وإن رأيت بسرورٍ أني ألممتُ بروح الكتاب إلماماً يكاد يكون تاماً غير أني أهملتُ طائفةً من الأفكار الجميلة والمعاني الرائقة التي لا يجوز الإغضاء عنها.

والآن أهدي إليك، أيها القارىء، هذه الطبعة الجديدة ستحبّ هذا الكتاب سواء أكنت معلّماً أو متعلّماً، فيلسوفاً أو شاعراً، سياسياً أو تاجراً، سعيداً أو شقياً، كبيراً أو صغيراً. ستحيا فيه وبه كما حييتُ. ستنمو به وتتوحّد وإياه حيناً فينتزعك عن ميدان المزاحمة والمنافسة والحقد والتهكّم والحسد والإجهاد. ستتوحّد وإياه مستدعياً ماضيك، أو مفكراً في حاضرك، أو مترقباً مستقبلك. أو هو يمثل لك فصولاً من ماضيك وحاضرك ومستقبلك جميعاً في آنٍ واحد، لأن العواطف لا تفنى والقلب لا تدركه الشيخوخة. بل يتبع طريق العمر جامعاً من يأسه وآلامه وانتصاره واندحاره خبرةً وقوةً توصلانه إلى سبل جديدة ومعارف مطلوبة. وحسبه أن ينبّه فيك التذكار الحلو المرّ من معاني الحب والحياة والموت والابتسامات والدموع وهي إرث بني الإنسان أجمعين.

(ميّ)

الذكرى الأولى

للطفولة أسرار وخصائص ولكن من ذا الذي يستطيع وصفها؟ من ذا الذي يستطيع تعليلها؟ لقد اجتاز كلٌّ منا ذلك العمر الذي تشبه ذكراه ذكرى غابة هادئةٍ مسحورة، وخبر يوماً فيه فتح عينيه المملوئتين بدهشة السعادة على سناء الحياة الجديدة الفائضة في روحه. يومذاك لا ندري أين نحن ومَن نحن: بل العالم كلّه يخصّنا ونحن ملك العالم بأسره. حياة تخال دائمةً بلا بداية ولا نهاية لا همَّ فيها ولا ألم. القلوب عندها صافية كسماء الربيع، عذبة كعرق البنفسج، مطمئنة قدسية كصباح أيام الأحد.

ماذا يطرأ على الطفل ليضطرب فيه هذا السلام الإلهي، وكيف تنتهي تلك الحياة المشبعة سذاجة وطهارة؟ ما هي العوامل المحوّلة معاني كيانه، تميتُ فيه الشعور بالاتحاد والتضامن وتعلّمه تمييز المفرد من الجمع فينتبه فجأةً فيجد نفسه في معترك الحياة وحيداً كئيباً؟.

لا تقل، ياذا الوجه العبوس، إن تلك العوامل هي الخطايا! أوَهل يجني الطفل إثماً ويقترف ذنباً؟ بل حريٌّ بك أن تعترف أننا لكل شيء جاهلون، وما علينا سوى الاستسلام والامتثال.

أهي الخطيئة التي تثبت البذرة زهرة، وتنضج الزهرة ثمرةً، ثم تفني الثمرة وتذرها هباءً؟.

أهي الخطيئة التي تحوّل الطيار دودةً، وتجنّح الدودة فراشةً، وتسحق الفراشة هباءً؟.

أهي الخطيئة التي تصيّر الطفل رجلاً، وتشعل منه الرأس بشيب الشيخوخة ثم تهمد الشيخ جثةً، ثم تدقّ الجثة هباءً؟.

وما هو هذا الهباء الذي تضيع فيه الصور؟ ألا فاعترف بأننا لكل شيءٍ جاهلون وأن ما علينا سوى الامتثال والاستسلام!.

على أنه يحلو التلفّت إلى ربيع الحياة وإلقاء نظرة على هيكل التذكار، سواء أكنا من العمر في قيظ الصيف، أو حزن الخريف، أو زمهرير الشتاء. بل لا بدَّ من ساعات كثيرة يناجي فيها القلب ذاته قائلاً «وأنا الآخر أشعر بالربيع متيقّظاً فيَّ!».

هذا ما أشعر به اليوم. وتراني نائماً على نديّ العشب في الغابة العطرية لأريح جسمي المضنى. أنام رافعاً بنظري إلى زرقة السماء البادية من خلال الوريقات الخضراء وأُفكّر «ترى كيف كانت طفولتي؟».

أخالُني ناسياً كل شيء لأن صفحات الذاكرة الأولى تشبه التوراة القديمة المحفوظة في العائلة أي ان ورقاتها الأولى ذابلة متجعدة ملوَّثة، ولا تتيسَّر القراءة إلاَّ بعد صفحاتٍ وصفحات، عند السطور المحدّثة عن طرد آدم وحوّاء من الفردوس.

طفولتي بعيدة العهد يفوتني كثير من حوادثها ولا أعي أيَّامها

القصوى أعود بأحلامي إليها، وأنتقلُ منها إلى الأبدية التي سبقتها، وتظلُّ البداية المبهمة متراجعةً أمامي كلمَّا تتبّعها فكري القاصر، لأن فجر الحياة يختفي في ظلمات الغفلة والحداثة. وأنا في ذلك كالطفل يبحثُ عن نقطة ارتكاز السماء على الأرض فيعدو حثيثاً وتلبثُ السماء مجدّدةً آفاقها. فيتعبُ الطفل وتكلُّ قدماه ولا ينال من بغيته شيئاً.

على أني ما زلتُ أذكر أول مرة رأيت النجوم وكانت النجوم تعرفني منذ زمنٍ طويل. كنت في ذلك المساء على ركبتيّ والدتي ورغم ذلك سَرَى البردُ في جسدي وتملّكتني رعشة الخوف ـ فانتبهتُ لذاتي الصغيرة انتباهاً غير عاديّ ورفعت والدتي إصبعها مشيرةً إلى النجوم اللامعة. فدهشتُ وفكرتُ «بأي لباقة صنعت أمي كل هذا!» وعادت الحرارة إلى جسدي وأظنني استسلمت للنوم. وأذكر كيف اضطجعتُ مرةً على العشب الأخضر وكل ما حولي يموجُ ويهتزُّ ويطنُّ ويهمهم. فاقتربت مني جماعةُ مخلوقات صغيرة مجنَّحة ذات أقدام متعددة وحلَّت على جبهتي وعينيَّ قائلةً «نهارك سعيد». فشعرتُ بألم في أجفاني وصرختُ منادياً أمي. فجاءت وقالت «يا بنيَّ المسكين، ها قد لسعك البعوض!» ولم أتمكن من فتح عينيَّ لأرى زرقة السماء. وكانت أُمي تحمل طاقة بنفسج نضير فأحسستُ بالأريج المسكّن ذي الزرقة القاتمة يخترق دماغي. ومنذ ذلك اليوم ما رأيتُ باكورة البنفسج إلاَّ انتعست تلك الذكرى في حافظتي، فأُغمض عينيَّ لعلَّ السماء الزرقاء القاتمة تخيّم على نفسي مرةً أخرى.

شفيتُ فانبسط أمامي عالم لم أعهدهُ يفوقُ منه الجمال جمال الكواكب ويفضلُ منه العطر عطر البنفسج. وكان صباح عيد الفصح. فأيقظتني والدتي باكراً فوقفت أنظر إلى الكنيسة القديمة القائمة إزاءَ النافذة. لم تكن جملة كنيسة طفولتي، إنما كانت شاهقة جدرانها ذات

منظر مهيب، باذخة قبّتها يعلوها صليب مذهّب، وتبدو أقدم جميع المنازل المجاورة ولطالما تمنيتُ التعرف بمن يسكنها فنظرتُ من شبك الباب الحديدي. وأطلتُ النظر مرةً فلاح لي الداخل خاوياً خالياً رطباً مفزعاً وليس تمت نفس واحدة. وصرتُ تتملكني هزة كلَّما مررتُ أمامها فأعدو طلباً للهرب.

ولكن في ذلك الصباح، صباح عيد الفصح، أمطرتنا السماء في الضحى ثم بزغت الشمس في أبهى حلةٍ من الأنوار فبهجت جدران الكنيسة القديمة وتألّق سطحها المصفّح الأشهب، ولمعت نوافذها الكبيرة، وسطعت القبة بسناء صليبها الذهبي سطوعاً مدهشاً تناول كلَّ شيء منها وحواليها. وبدا النورُ السائل من النوافذ الكبيرة حيًّا متموّجاً وهو أبهى من أن يتيسر التحديق فيه. فأغمضتُ عيني. إلاَّ أن النور العجيب ما زال يفيض على روحي جاعلاً جميع الأشياء لامعةً عطرة ترنُّ وتنشد.

خلتُ حياةً جديدةً تنبض فيَّ كأن شخصي الأول تبدَّل بشخصٍ آخر؛ وإذا سألتُ عن الأصوات الفخمة المتصاعدة من أعماق الكنيسة قالت والدتي إن هذا نشيد الفصح. لم يتسنّ لي إلى اليوم معرفة ذلك النشيد الذي فاضت أنغامه على روحي، ولا ريب أنهُ من تلك المزامير الرائعة التي تسرَّبتْ إلى روح لوثر الصارمة. ولم أعد أسمعه مرةً أخرى. أما الآن فعندما أصغ إلى موسيقى بيتهوفن أو مزامير مارسلو، أو أجواق هيندل ـ وأحياناً عندما أسمع الأغاني الساذجة في جبال اسكوتلندا والبترو ـ أشعر بأن نوافذ كنيستي القديمة تسطع بنورٍ باهر، وأن عالماً جديداً ينفتح أمامي أجمل من عالم الكواكب وأعذب من عرف البنفسج.

هذا ما علق بذهني من تذكارات طفولتي يتخلّلها وجه أمي الحنونة وعينا أبي العميقتان، وحدائق وأشجار وعشب مخمليّ الخضرة، ودالية تحمل العناقيد الناضجة، وكتاب جليل تملأهُ الصور الملوّنة ـ التوراة. هذا كل ما أميزهُ على الصفحات الأولى من ذاكرتي الذابلة.

لكنَّ ما يعقبه واضحاً جليًّا. أرى ملامح الوجوه التي اعتدتُ مشاهدتها وأنادي أصحاب هذه الوجوه بأسمائهم: أبي وأمي، وأخواتي وأخوتي، والأصدقاء والمعارف والمعلمون وبعض الغرباء.

أوّاه! يا لحلاوة تذكارٍ تركتُ الغرباء في فؤادي! ويا لعمق موضع روحيّ نُقشت فيه أسماؤهم!.

بين السائرين يمنةً ويسرةً دون أن يعيروه لفتةً إذن تنهض عاطفة منسية وتتمشى في صدره ذهاباً وإياباً، ولا يدري أهي حبٌّ أو صداقة، ويودُّ أن يصرخ لكلٍّ من أولئك الغرباء «ألا تعرفني؟».

إذ ذاك يشعر بأن الغريب أقرب إلى الغريب من الأخ إلى أخيه ومن الأب إلى ابنه ومن الصديق إلى صديقه، ويدوي في طبقات ذاكرته صوت مجهول قائلاً إن هؤلاء «الغرباء» أقرب أصدقائنا وأعزهم لدينا وأحبّهم عندنا.

إذاً لماذا نمرُّ بهم صامتين؟ ذاك سَبَر لا نصل إلى قراره وعلينا أن نمتثل. عندما يمرّ قطاران وأنت في أحدهما وفي الآخرِ وجهٌ يودّ أن يبسَم حاول مدّ يدك لمصافحة الصديق المبتعد عنك قهراً. حاول ذلك وجرّبه وربَّما علمتَ لماذا يمرُّ الإنسان بالإنسان صامتاً.

قال فيلسوف قديم: رأيت بقايا سفينة أغرقتها العاصفة عآئمةً على

صفحة البحر. بعضها يتلامس ويلتقي إلى حين. ثم تهبّ الريح فتغرقها شرقاً وغرباً. دون أملٍ في اللقاء. ذلك مصير بني الإنسان في بحر الحياة، ولكن ليس بينهم من شهد غرق السفينة.

الذكرى الثالثة

غيوم الحزن لا تبقى طويلاً في جوّ الطفل بل تتبدَّد بتدفّقها من عينيه دموعاً. لذلك عدتُ بعد أيام إلى القصر فأعطتني الأميرة يدها وأُتيح لي تقبيلها. وجاءتني بأولادها الأمراء والأميرات فأنشأنا نتقاسم الألعاب ونتشارك في الملاهي شأن الذين يرجع عهد تعارفهم إلى سنواتٍ خَلَت. تلك أيام هنيئة، لأني بعد ساعات المدرسة ـ وكنتُ بدأت أذهب إلى المدرسة ـ كان لي أن أتوجّه إلى القصر فأجتمع برفاقي وبين أيادينا ما يشتهي قلب الطفل من لعيباتٍ ودمًى كثُر ما أرتنيها والدتي وراء زجاج الحوانيت الكبيرة قائلةً إنها باهظة الثمن قد تكفي قيمة الواحدة منها لإعالة العيلة الفقيرة أسبوعاً كاملاً. ومثلها كتب الصور الجميلة التي أبصرتُ أبي يقلّبها عند أصحاب المكاتب ويقول إنها لا تُشرى لغير الأولاد الصالحين كلَّ الصلاح. ها هي لي الآن في القصر أقرأُها وأتمعَّن في صفحاتها ساعاتٍ طويلات، لأن كلّ ما يخصُّ الأمراء الصغار يخصُّني ـ أو بالحري هذا ما أزعمهُ. إذ لا تقصر حريتي على استعمال ذلك المتاع الصبياني عند أصحابه بل أنا مخيرٌ في أخذ ما

أُريد منه إلى البيت وفي التصرف به وإهدائه إلى أولاد آخرين. وزبدة القول إني كنتُ إشتراكياً بأوسع معاني الكلمة.

وكانت الأميرة تلبس يوماً أفعى ذهبية التفَّت حول زندها التفاف الحياة والإحساس. فدفعت بها إلينا لنلهو. وعند الانصراف لويتُ الأفعى حول ساعدي لأرعب أمّي في الظلام. فلقيتُ في طريقي امرأة توسَّلت إليَّ أن أُريها الأفعى، ففعلت فتنهّدت وقالت إنها لو ملكتها لخلص بثمنها زوجها من غيابات السجن. فلم أتردّد لحظةً في مساعدتها، ومضيتُ أعدو تاركاً المرأة والسوار الذهبيّ بين يديها.

وحدثت في الغد جلبة وضوضاء إذ جيء بالمرأة إلى القصر تبكي وتنتحب وقد اتهمت بأن اغتصبتني الأفعى. فاستشطت غضباً وصرَّحتُ بتحمس وحدّةٍ إني وهبتها السوار، ولا أروم استرداده. لا أدري ماذا جرى بَعدئذٍ. على أني صرتُ منذ ذلك اليوم أعرض على الأميرة كل ما أحمله معي إلى البيت.

مرَّ زمنٌ قبل أن تتسع أفكاري فأدرك معنى خاصتي وخاصتك. وطال اختلاط المعنيين في ذهني كما طال عجزي دون التمييز بين اللونين الأحمر والأزرق. وآخر مرةً ضحك مني أصحابي لمثل ذلك كانت يوم أعطتني والدتي نقوداً لأبتاع تفاحاً. أعطتني عشرين بارة وكان ثمن التفاح نصف هذه القيمة. فقالت البائعة بصوتٍ خلته حزيناً إنها لم تبع شيئاً منذ الصباح وليس لديها من النقود ما تردّه إليَّ، وتمنَّت أن أشتري تفاحاً بعشرين بارة. فتذكرت أن في جيبي قطعة نقودٍ أخرى من ذوات العشر بارات، وسررت أن أحلّ المشكل بنقدها تلك القطعة قائلاً «الآن تستطيعين أن تردّي العشر بارات الباقية». فلم تفهمني المرأة المسكينة بل أعادت إليَّ قطعة العشرين بارة واستبقت لنفسها قطعة

العشر بارات.

كنتُ أذهب كلَّ يومٍ أشارك الأمراء في ألعابهم وأتعلَّم معهم الفرنساوية. ومنذ ذلك الحِين أرى صورةً ترتفعُ من أعماق ذاكراتي. تلك هي ابنة الأمير الكبرى الكونتس ماري التي توفيت والدتها إثر وضعها فتزوج الأمير بعدئذٍ بالأميرة الحالية. تلك الصورة تتصاعد في شفق ذاكرتي بتمهّلٍ وإبهامٍ. فهي في البدء خيالٌ سابح في الهواء يتشكّل ويتكيّف قليلاً قليلاً مقترباً مني، حتى يقف أخيراً أمام نفسي ساطعاً، كالبدر يشقُّ عباب الغيوم بعد زوبعةٍ شديدة ويبرز فينير وجه الليل. كانت الفتاة أبداً مريضة تتألَّم صامتةً. ولم أرها حياتي إلَّا ملقاةً على سريرٍ نقَّال يحمله إلى غرفتنا رجلان، ويحملانه منها إذا تعبت وأشارت. هناك كانت ترقد بين الأنسجة البيضاء، شابكةً يديها على صدرها، ووجهها شاحب وإنما مليح معسول، وعيناها عميقتان لا قرار لغورهما. فأقف حيالها مشتت الفكر، وأُحدِّق في عينيها متسائلاً ما إذا كانت هي الأخرى من «الغرباء». فتضع يدها على رأسي وتتملك أعضاءي هزة وألبثُ جامداً صامتاً بلا حركة ولا كلام، وكلُّ قواي تطلُّ من حدقتيَّ على تينك العينين العميقتين اللتين لا قرار لهما.

كانت تكلمنا نادراً غير أن نظرها يرقب كافة ألعابنا. ولم تكن تتذمَّر مهما أفرط في رفع الصوت وإكثار الجلبة. بل تنقل يديها إلى جبهتها العاجية وتغمض عينيها كمن يستسلم للنوم وتشعر بتحسن صحتها في أيام أخرى فتستوي فوق مضجعها ونرى على وجنتيها نضرة الفجر الباكر فتحدثنا الأحاديث المسلية وتقصّ علينا الحكايات المدهشة. لست أدري كم كانت سنها على أنها كانت باعتلالها الطويل وضعفها شبيهة بالأطفال، يداريها الجميع ويذكرونها برفقٍ واحترام وينعتونها «بالملك» ولم أسمع عنها يوماً سوى الكلمة الطيبة. أما أنا

فكنت أقف خيالها خاشعاً، وعندما أراها صامتة بائسة وأفكر في أنها لن تعرف يوماً لذة النهوض والسير من مكان إلى مكان بمجرّد دافع الإرادة، وإنها ليس لديها من عملٍ تؤديه ولا مسرّةٍ تتمتع بها بل إن سريرها هذا في الحياة إنما هو رمز نعش يضمها في مرقدها الأخير ـ إذ ذاك أساءل نفسي لماذا جاءت هذا العالم وهي أهل لأن تذوق راحةً رضية في حضن الله أو أن تحمَّل على أجنحة الملائكة البيضاء على ما نراه ممثّلاً في الصور المقدَّسة. ثم أشعر بوجوب مقاسمتها آلامها لئلا تقاسي وحدها جاهلةً أن قربها قليلاً يتألم لها ويحتمل معها. ولكن كيف أبوح لها بما يجول في خاطري وأنا غافل عن وجوده؟ كل ما كنت أعلم أنه لا يجوز لي أن ألقي بنفسي على عنقها لئلا أسبب لها كدراً وغمًّا فأكتفي بالابتهال إلى الله من أعماق قلبي أن يريحها من متاعبها.

أدخلت علينا في يوم حار من أيام الربيع وهي شاحبة كلّ الشحوب، أما عيناها فكانتا أشد إيماناً وأبعد غوراً. فجلست على مضجعها ونادت بنا وقالت «اليوم تذكار مولدي. حبذا العيشة معكم طويلة ولكن قد يدعوني الله إليه في القريب العاجل. ولما كنت راغبة في أن لا تنسوني تماماً بعد رحيلي جئتُ كلًّا منكم بخاتم يلبسه الآن في السبابة ويظلّ ينقله الى الأصبع المحاذي كلما مرّت الأعوام حتى يستقر في الخنصر وهناك يبقى مدى الحياة».

وعمدت إلى خواتم خمسة في أصابعها فنزعتها واحداً بعد الآخر وعلى وجهها إمارات حزن عميق يمازجه حبٌّ ولين. فأغمضت عينيَّ لئلا أبكي. فأعطت أخيها الأكبر الخاتم الأول وقبّلته، ودفعت الخاتمين الثاني والثالث إلى أختيها الأميرتين، وكان الخاتم الرابع نصيب الأمير الأصغر، وقبّلتهم جميعاً، وكنت أقف قربها محدقا في يدها البيضاء، محدِّقاً في الخاتم الوحيد الباقي في إصبعها. ثم استلقت على سريرها منهوكة القوى فتبع حركتها نظري والتقى بنظرها ففهمت بلا ريب ما يدور في

خلدي وسمعت ما يهمس به قلبي لأن ألحاظ الأطفال شديدة التعبير بليغة المعنى. حزنت لإعراضها ولو حاولت مراضاتي الآن ما رضيتُ أن أنال الخاتم الأخير لأن التخلّف إنما يدلُّ على أني غريب لا أخصُّها، وإنها لا تحبني محبتها لأخوتها وأخواتها. وصرتُ متألماً في قلبي كمن فُتح أحد عروقه أو قُطع بعض أعصابه، ولم أعد أدري أني أوجّه نظري لأخفي كربتي.

فجلست من جديد ولمست جبهتي مرسلةً في عينيَّ نظرة استقصاء واستقراء أشعرتني بأن ما من سرٍّ فيَّ إلاّ اكتنهته الفتاة وما من فكرٍ إلاّ قرأته. وسحبت الخاتم الأخير من يدها متمهلةً وقالت «وددت أن يصحبني هذا الخاتم يوم أفارقكم ولكن البسه أنت فذلك خير وفكّر فيَّ عندما أصير بعيدةً عنكم. اقرأ الكلمات المنقوشة على الخاتم «حسب مشيئة الله». أما قلبك هذا فقد أُفعم حرارةً ورقة، ألا فلتروضه الحياة وتنمه دون أن تقسيه!» ثم قبلتني كما قبّلت أخوتها وأعطتني الخاتم.

ما أصعب الوصف وما أعطاه! يومذاك كنت أكاد أكون صبياً فكيف يتفلّت قلبي من سحر ذلك الملك المتألم ولطفه؟ كنت أحبها كما يحبّ الصبي ـ والصبيان يحبون بحرارة وصدق وطهارة قلَّ منهم من يشعر به في الشباب والرجولة ـ على أني ذكرت أنها من «الغرباء» اللذين حُرمت عليّ المجاهرة بحبّهم ولكني شعرت بتقارب روحينا وبتلامسهما بأرق ما تتلامس به أرواح البشر. زالت المرارة من قلبي ولم أعد أشعر بأني وحيد، ولم أعد أشعر بأني غريب عنها تفصل بيننا هوة أو مرتبة. كنت معها، كنت قربها، كانت روحي تلمس روحها، فحسبي.

ثم رأيت استبقاء الخاتم الذي ودَّت أخذه إلى القبر، رأيت

استبقاءه مع حرماناً لها، وتعالت في نفسي عاطفة طغت على كلّ عاطفة سواها فقلتُ قلقاً عليكِ الاحتفاظ بالخاتم إن شئتِ أن يكون نصيبي. لأن ما لكِ هو لي». فأَطالت النظر في وجهي دهشةً متأملةً، ثم تناولت الخاتم ووضعته في إصبعها وقبَّلت جبهتي مرةً أخرى وقالت بصوتها العذب الرقيق «أنت لا تدري ماذا تقول، أيها الفتى، فحاول إدراك نفسك لتسعد أيامك وتسعد الآخرين معك».

أيتها السيدات

موضوعنا اليوم «غاية الحياة» ولا أعرف كلمةً خطيرة كهذه وأكثر تفلتاً من حدود التعريف. إن لفظة «الحياة» في معناها التام تشملُ الكون بأسره مما يُرى وما لا يُرى. وهي ذلك التيار الخفيّ النافذ في كل شيء، المحيط بكل كائن، وقد حوى من الاقتدار والجبروت ما ألقى في روعنا أنه من روح الله. كأننا نحسب الحياة نسمات نورٍ وإنعاشٍ منطلقة من صدر تلك القوة الكبرى التي نسبح جميعاً في بحار جودها ونسميها «الله».

فإذا شمل معنى الحياة جميع الموجودات فأنَّى لنا تعيين غايتها؟ من ذا الذي يجرأُ على تعيين غاية الفلك في دورته، والنجوم في سيرها، والمذنّبات في تكوّنها، والشموس في تشعُّعها واحتراقها، والنيازك في تساقطها على الأرض حجاراً سوداء؟ من ذا الذي استشفّ من البحار غاية المدّ والجزرِ، ومن القمر غاية الاكتمال والانتقاص، ومن النوع البشري غاية مدنيَّاته وأديانه وأنظمته وكل ما يتقلّب عليه من الأطوار؟ كيف نتحرَّى غاية الربيع بحلوله بعد الشتاء، فيتبعه الصيف المتلظي الذي لا يلبث أن يزول أمام الخريف الحزين؟ وما غاية الغصن في تمايله وتجرُّده وإيراته، وغاية البذور في النموّ والإنتاج والذبول؟

نحن نعرف بعض الأسباب الطبيعية في الخليقة وما يترتب عليها من النتائج. ولكن لماذا تعمل تلك الأسباب، وما غاية هذه النتائج، وإلى أين يقودنا هذا الوجود وهذا الفناء؟ لغزٌ رائع لا يحلُّه الإنسان مهما ارتقى علماً وفضلاً وإخلاصاً.

والإنسان الذي هو جزءٌ من هذا الوجود غير المُدرك، أكثر ما يستعمل كلمة «حياة» ليعني كمية أيامه على الأرض ومجموع أعماله، وكمية أيام كائنات أحاطت به وقد امتاز عنها جميعاً بما أوتي من إدراك وإرادة وحرية. فالجماد مثلاً لا يتحرَّك إلا مرغماً بفعل العناصر كالأعاصير والرياح تقتلِع الصخور، والأمطار تنحتها وتفتتها. أو بعامل آليّ كالديناميت يدمّر الآكام ويصعق الراسيات. والنبات، وإن تحرَّك مع النسيم ونشر شذاه في الهواء وكان له إحساسه الخاص كبعض النباتات التي تنكمش إذا ما لُمست، إلا أن أصوله تظلُّ أسيرة أرضٍ تغذيها. والحيوان ينتقل من مكان إلى مكان بدافع الرغبة وبإيعاز الإدراك الذي لديه منه كمية ما. ولكنَّ للإنسان وحده قوة التمييز والمقارنة والاستنتاج والإبداع في أتم أنواعها الممكنة. له وحده حرية الانتقال من جهة إلى جهة، والتفكير فيما شاء، وتنفيذ ما أراد. له وحده أن يتصرف بالموجودات التي يعقلها ويعالجها ويستخدمها لحاجته، وهي تعنو له صاغرة لأنها لا تعقله وتبقى دونه مهارة ومقاومة. وإن جمحت يوماً وفتكت به ساعة غضب عنجهيّ، فتلك طوارىء عاديات كالصواعق والفيضان والطوفان والأوبئة التي لا تدوم غير وقت ما. ولسرعان ما يهبُّ لمقاتلتها واختراع ما يمكنه منها ويقيه شرّها. ولئن خنعت الموجودات إلى النظام الكليّ الذي يسيّرها قهراً فعاشت عيشتها الصخرية العشبية البهيمية وأدَّت وظيفتها المعينة جاهلة صاغرة، فإن الإنسان ـ وفي ذلك ميزته وفخره ـ لا يكتفي بتلك العيشة الابتدائية

العنصرية ولا يعيشها مرغماً بل سعيداً، مدبّراً، مختاراً. وهو فوق ذلك يخلق لنفسه غايات قومية وسياسية وفكرية وقلبية جمة، تتسابق إلى تحقيق غاية قصوى يوجّه نحوها مجهوداته، ويجمع أعماله في شبه قناة حيوية تنتهي إلى تلك الغاية البعيدة، تلك الغاية المحبوبة التي يخالها تناديه وقد اتخذها كعبة آماله.

عند هذه الكلمة «كعبة الآمال» المرادفة لموضوعنا «غاية الحياة» يقف كل قلب ويزفر زفرة حارة إذ يتساءل: «وما غايتي من الحياة؟ أأعرفها أنا وهل تشعر هي أو تبالي بوجودي؟ ما هي يا ترى؟ أثروة أبتغي حشدها؟ أجاهٌ، أم قدرة، أم حال أنعمُ فيها بجميع أسباب الهناء وأتذوَّق خلالها لذائذ الفوز والسيطرة! أهي علم لا أفتأ أذهب في غوره ليكشف لعاقلتي حُجُبَ الحياة وأسرارها؟ أهي إرهاف ملكاتي الذهنية والنفسية إرهافاً يرفعني فوق أقراني ويجعلني موضوع إعجابهم؟ أهي تقوى تدنيني من خالقي وتطمئن بها نفسي؟ أهي شخص أيقظ فيَّ حياة الوجدان العجيبة وتمثلت لي في ذاته صفات الألوهية المعبودة حتى صرتُ أستهين لأجله بكل عزيز وأُجازف بكل مكنون؟ وأين أنا الآن من ضالتي المنشودة؟ ماذا أكسبني جهاد الأعوام الغابرات، وإلى أين أوصلني ذلك الجهاد الطويل؟ ماذا جنيتُ من الكدّ والتجلُّد والرجاء، وبعد دموع أرسلتها وأخرى أمسكتها، وزفرات أطلقتها وأخرى كتمتها؟ أراضٍ أنا عن نفسي وعن غيري، أم أنا كلما خطوتُ خطوة إلى الأمام تقهقرتُ إلى الوراء خطوتين؟ أم أنا كنت أعللُ النفس بشيء فلما صار لي وجدته شيئاً آخر؟ أم أن ما كان يبدو لي حقيقة محسوسة إنما هو خداع فتان كلما جريتُ نحوه ملتمساً، ودنوت منه مستعطفاً، ارتدَّ وتباعد كما يرتدُّ ويتباعد السراب في الصحراء وعدتُ أنا إلى عذاب محتوم واصطبار جميل؟ غايتي من الحياة السعادة، فهل أنا سعيد؟».

وهنا يقف كلٌّ فترة أخرى ويزفر زفرة جديدة سعيداً كان أم شقياً، لأنه لا بدَّ لكل قلب من فراغ لا يملأ ومن حاجة لا تسدّ. ولأن النفس البشرية تشبه بركة الماء مهما راقت صفحتها وتلألأ سطحها، حرّكها قليلاً تتعكر وتكفهر بما ركد في أعماقها من الأوحال. وفي أعماق كل نفس آلام ثاوية، وتذكارات جاثمة، وجراح صديدة اندمل بعضها على فساد يكفي أن تلمسها يد أو إشارة لتمضُّها الأوجاع فتعمد إلى الاستغاثة والأنين.

* * *

إن السعادة غاية الجميع، أما السبيل إليها فمختلف باختلاف الطبائع. حرمُها الناس طويلاً فازداد شوقهم، واحتشدت في قلوبهم الكظوم والضغائن حتى لكأن الإنسانية تتحرك اليوم فوق بركان ثائر. ففي كل مكان حروب وتقاتل على المنافع، ومن الغريب أن النقيضين أي يقظة الوطنية وانتشار الاشتراكية يسيران جنباً إلى جنب، والأمم جميعاً على وجل واضطراب تنتظر من وقت إلى آخر تغير الأحوال، ووقوع ما كان يرجى أو ما لم يكن ليرجى.

بيد أن الحياة العامة لا تأخذ من حياة الفرد سوى ساعات معدودات، وفي أشد حالاته تحمساً تظلُّ حياته الداخلية على ما هي تقريباً. يظلُّ له عوزه الذي لا يملأه الغنى العام، تظلُّ له آلامه الجسمية والروحية يتجرَّع مرارتها ويحتمل من وخزها ما لا يخدّره التهليل العام. تُرى ما هو تأثير تلك الأفراح الوطنية الجميلة في العليل اليائس، وفي المعدم الذي ليس لديه ما يسدُّ رمق صغاره، وفي القلب الذي حوى جمرة تأكل سويداءه، وفي الصدر الذي اكتظت فيه الغموم؟ تلك لمحات ابتهاج تسطع ثم تترك القلب أكثر وحدة وسواداً، والعليل أكثر

أسفاً على أيامه المتتابعة كالأظلال.

السعادة هي الغاية، وما السعادة في حقيقتها وعلى تنوُّع صورها في الأذهان، سوى تطوُّر متتابع نحو حالة تستوفي عندها جميع القوى وسائل النموّ والانبساط والظهور كاملة وافية بأقل ما يمكن من المقاومة والألم، هذا إذا تعذر الخلاص منهما على الإطلاق. وهل من تطوُّر ونموٍّ بلا عمل؟ لا جمود في الخليقة حيث كل مخلوق، حتى ولو اختفى وراء مظاهر الموت، يؤدي وظيفته ويتمم ما وُجد لتتميمه. وكذلك كل خلية من خلايا الجسم تعمل لتؤدي وظيفتها. غير أن ذلك العمل الآلي ليس ليغني الفرد المفكّر المريد الذي لا تكفيه الغاية العامة في الكون، إنما هو يعمل عملاً خاصاً إضافياً يتفق مع غايته المختارة تتمرَّن عليه مجهوداته ويمارس به قواه. تلك السعادة التي يحلم بها لا بدَّ أن يسعى إليها سعياً خصوصياً حثيثاً أريباً في تحنيه وتشعبه وتنوُّعه. ومع ذلك ليست كل قيمة العمل في أنه موصل إلى الغاية المقصودة ولكن قيمته المعنوية الكبرى في كونه آلة الاستقلال الفردي وخالق الاحتياج إلى الاعتماد على النفس.

وما هو الاعتماد على النفس إن لم يكن مكيّف الذاتية الحرة التي تدرك أهمية احتياج الآخرين إليها وتدرك كونها مخلوقة على صورة الله ومثاله. لأن الله، وهو المبدع الأعظم، خلق الإنسان وأودعه قوى الإدراك والاختيار والابتكار التي لا تظهر إلا في العمل. فبهذا العمل الذي يخلقه الإنسان ويتقنه يصبح إلهاً صغيراً. بالعمل يكبر في عيني نفسه وتنسجم حوله هالة الكرامة المفرزة عناصرها من داخله المتشبع ثقةً بكفاءته وإقدامه. بالعمل يرفع رأسه الذي أحناه الطلب والاستنجاد، وينظر إلى الناس كأشباهٍ لا هم فوقه ولا هم تحته بلٍ هم إخوان يعملون في سبلهم المختلفة. وينظر إلى الحياة متفرساً في

ملامحها بلا وجل لأنه تعلّم في مدرسة الاعتماد على النفس، إن المصائب والمحن والمعاكسات الداخلية والخارجية تعجز عن النيل من قواه الجوهرية، وأن تلك الرزايا إنما هي عناصر اختبار، له أن يستخرج منها دروساً قيّمة ومعلومات جديدة تزيده قوة ونبلاً.

ليس النبيل من ورث نسباً ومالاً فاستخف بالناس والأشياء اتكالاً على وراثته، بل النبيل من خلق نفسه، وما زال بها كل يوم يجدّدها بعمله ليخلف للمستقبل ثمرة مجهوداته. النبيل من لا ينتظر «الظروف» و «الحظ» و «البخت» تلك الكلمات التي يتملح بها الذليل الخامل، بل ينتهز الفرص ليجعلها صفحات جليلة في كتاب عمره. وما الأيام والساعات سوى فرص ثمينة للنابه يستخرج منها العجائب.

* * *

هنا أودُّ أن أحصر الموضوع في المرأة، لأن الموضوعات النسائية تستوقفنا بوجه خاص، لنبحث فيها عن نقائصنا ونعرف مواطن ضعفنا فنحاول الإصلاح ما استطعنا إليه سبيلاً.

أما فيما يتعلق بضعف المرأة فأُصارحكنَّ القول بارتيابي منه في المعنى الذي يقصدون. أُرسل البحث في شؤون العمران فأجد تأثير المرأة وراء كل عمل مسبباً من الحوادث ما لا تفسير له بغير كلمة نابوليون «فتِّشْ عن المرأة!». وأقلب صفحات التاريخ فأراها في تعاقب العصور ملكة صالحة، وسياسية دقيقة، ومفكرة كاتبة عالمة مصلحة لا يستهان بها، وذات بسالة كبسالة أعاظم الأبطال. ذلك على رغم الجور والاستبداد. فلو أبدلناها بالرجل وعاملناه بمثل ما عاملها فحرمناه النور والحرية دهوراً فأيُّ صورة هزلية يا ترى يبقى لنا من ذيَّاك الصنديد المغوار؟.

على المرأة أن تكون جميلة أنيقة دمثة، لينة متعلمة قوية الجسم والنفس ماضية العزيمة. عليها أن تصون ذاتيتها الفردية بينا هي تصطبغ بصبغة محيطها وتراعي ميوله لتحفظ توازن السرور والانشراح في البيت الذي يحبها وتحبه. عليها أن تأتي بالأولاد وتتعهدهم جسماً وعقلاً وروحاً. عليها أن تكون عارفة بأساليب الاقتصاد والتدبير. عليها أن تحافظ على وفاق الأسرة وسلامها وأن تنشىء علاقات تآلفٍ بين أسرتها وأُسر الأصحاب والمعارف وغيرهم ممن تدنيها منهم المصلحة أو أي شأن من الشؤون. فكأنها بذلك وزيرة داخلية ووزيرة خارجية ووزيرة معارف ووزيرة مواصلات ووزيرة مستعمرات الخ. هذه الأعمال التي توزع على نخبة من أفضل رجال الأمة وأقواهم تُلقى جميعاً على عاتق امرأة واحدة تقوم باتقانها على قدر المستطاع، ثم يعودون فيقولون إنها «ضعيفة».

صدقوا، هي ضعيفة ولكن إزاء نفسها الفائضة بالعواطف الرجراجة الصاخبة المستعرة، ضعيفة بأعصابها الدقيقة السريعة التأثر وباستعدادها لتشرُّب الألم واستيعابه إلى درجة لا يتصوَّرها من لم يكن امرأة. وإنما هو هذا الضعف الذي يجعلها أحياناً أكثر عدواً من الرجل إذ تتناوبها هباتٌ ووثبات تندفع بها كمن يريد التكفير عن قعود مضى أو كمن يخشى عجزاً آتياً، في حين أن الرجل يظلُّ منظم السير واسع الخطى كأنه واثق من توفر القدرة والنشاط لديه على الدوام. وإن التمست غاية استعملت للحصول عليها فنًا وحذقاً ليس هو حذق الرجل ولا هو فنه. وكل ذلك ناتجٌ عن تراكم آلامها الوراثية وعن توحد الغاية في الأجيال النسائية الخالية التي لم تكن تبغي غير الحب والزواج والعائلة. فإن كانت هذه غايتها اليوم انطلقت إليها بقوة ساقت ملايين ملايين النساء منذ أن وجد النوع البشري، لا تبالي أصادفت وعراً أم

اصطدمت بصخر. وإن تغايرت الغاية سيقت بذات القوة يزكيها التوقُ إلى المجهول ولذة الاختلاف والرغبة في النجاح، فتتفوَّقُ في عملها، إن شرًّا فهي السفاحة ماري تيودور، أو هي ريًّا وسكينة بطلتا فظائع الإسكندرية. وإن رأفةً فهي الأمُّ المفاديةُ والشفيقة العاكفة على فراش المريض تصدُّ عنه الموت وتجلب إليه العافية. وإن حماسةً وفخاراً فهي جان دارك ومدموزال بوستافويتوف البولونية، أو هي المرأة المصرية تجوب الأحياء مرصعة هواء بلادها بالأعلام الخافقات، وتهتف بما يستفزُّ الدموع ويستنهض الهمم ويُفهم الرجال شباناً وشيوخاً قيمة الأوطان وعزَّ الأوطان وحرمة الأوطان.

ليست الصعوبة في المجاهدة لنيل غاية عزيزة وإنما الصعوبة الموجعة على الرجل والمرأة معاً في عدم وجود الغاية. أوجع شيء للمرأة أن تكون مبهمة المطالب والمستقبل، أمامها صفحةٍ خاوية خالية ليس فيها بارقة أمل ولا كلمة عزاء. كثيرات هنَّ التعبات اللاتي وقعن فريسة ذلك الشلل المعنوي مولّد المجازفة والانحطاط الذي يدعى السآمة. فيجرين هنا وهناك هرباً منه مخاطرات بما رجب صونه، ناسيات ما عليهنَّ أن يذكرنه. ومنهنَّ من لا تطيق البقاء يوماً واحداً بلا زيارات واستقبالات وأحاديث جارات وخالات وعمّات، كأنها تخاف الاختلاء ومقابلة نفسها وجهاً لوجه فتفقد بذلك أعظم تعزية وأعظم أمثولة في الحياة. وإن أحسنت القراءة دفنت سآمتها في الروايات دون أن تفقه ما فيها من مغزى اجتماعي أو أخلاقيّ، مكتفية بتتبّع الصلة الغرامية والاستسلام إلى ما يبديه أبطال الرواية من انفعال اصطناعي مضخَّم، جاهلة أنها بتطلُّب ذلك التحريض القهريّ تطفىءُ نور ذهنها وتضعف من نفسها جميع القوى حتى قوة الحبّ الذي ينتقم من مهينيه ومزيفيه انتقاماً صارماً.

ما أعظم الحبّ وأشرفه، أيتها السيدات، في القلب المتبصّر الحكيم! هو أقدر عامل ينهض بالإنسانية مسهلاً طريقها، مخففاً أثقالها، خالقاً من أبنائها الأبطال والجبابرة. وأجمل الأرواح وأكبر القلوب وأنبل النفوس إنما هي تلك التي يظلُّ فيها نهرُ الحبّ دائم الفيضان وتظلُّ تبعث شعاع شمسها الداخلية إلى ما وراء الفرد والبيت والوطن فتمتدُّ على كل شيء وتضيء كل شيءٍ. الذي يحبُّ كثيراً يفهم كثيراً. لأن الحبَّ أستاذ ساحر نتعلم منه بسرعة ويفتح لنا رحب الآفاق يهمّم فيها صوته المحيي الذي لا تسكنه أصوات الأفراح والأحزان.

ولكن كم نصغره ونحقره عندما نحصره في الموضوع الواحد الذي تدور حوله الروايات والأشعار الغزلية وننسى أنه الرابطة الكبرى، كدت أقول الرابطة الوحيدة، بين أجزاء الكون وبين الإنسان والموجودات، وأنه هو وحده دواء السآمة الناجع وبلسم التعزية الفعَّال.

* * *

وكيف نتناول ذلك الدواء ونتغذّى بذلك القوت الإلهي؟ السبيل واحد لا ثاني له، وهو العمل. العمل الذي ينير العقل، ويفتح القلب، ويملأ الوقت، ويحبو الحياة طعماً لذيذاً، ويروّح النفس الواجمة، ويرضي الطباع الساخطة، ويصرّف العواطف المتلازبة في منافذ ومخارج حسنة العائدة على المرأة الواحدة وعلى من يلوذ بها. فلتعمل المرأة أي عمل ينتظر يداً تقوم به وكل عمل تشعر من نفسها بميل جديّ إليه. وسواءٌ كانت مشتغلة لتعيش أو لتلهو، لا فرق بين نوع العمل من علم وفن وخياطة وتطريز وتدبير منزل أو بيع في المخازن، فالأمر الجوهري هو الاجتهاد ووضع قلبها وفكرها في ما تعمله لتتقنه وتكبر به

مهما كان صغيراً حقيراً. ولكن لفظة الحقارة لا تصلح لمعنى العمل لأن كل عمل شريف في ذاته، وليس منظّف الشوارع بين الغبار والأقذار بأقل أهمية من الرجل العظيم في قصره بين التهليل والإكبار، ولا هو أقلُّ نفعاً لأمته وللإنسانية.

إذا أحبَّت المرأة ذاتها حبًّا رشيداً كانت لنفسها أباً وأمًّا وأختاً وصديقةً ومرشدةً وأنمت ملكاتها بالعمل وضمنت استقلالها بكفالة عيشتها. لأن الأهل الذين تتكل عليهم قد يموتون، وللأخوة والأخوات عائلاتهم وسبلهم في الحياة، والأصدقاء يتغيرون وينسون، والثروة الطائلة قد تنقلب هباء، أما هي فلا تخون ذاتها ولا تنسى ذاتها ولا تفقد ذاتها. والثروة كل الثروة في الإباء والاستقلال الفردي وتعاطي عمل ما بجدٍّ واهتمام وبراعة. والأعجوبة أن هذا العمل الذي نباشره هرباً من الملل، ورغبة في قتل الوقت، لا يلبث أن يصبح ذا شأن كبير ويعيّن لنا غاية عظيمة مشيراً إلى وسيلة الحصول عليها. بل لا أعجوبة في ذلك ما دام العمل الكبير مجموع تفاصيل صغيرة دقيقة. أليس أن الجوامع الأثرية البديعة، والمآذن الهيفاء الباذخة إنما برزت وثبتت بتناسق الحجر قرب الحجر؟ أوَليس أن العَلَم الذي تتفيأُ بظله أماني الأمة ورغباتها إنما نُسج من خيوط واهية يكاد يكون كل منها بلا أهمية في ذاته؟.

كذلك فلتكن مجموعة أعمالنا غاية جليلة نقوم بها عاليات الجباه تحت أكاليل العزم والجهاد، وقد اختفت من عيوننا خيالات الخضوع والمسكنة، وحلَّت محلها نظرة من هي لم تعد عبدة المجتمع، ولا عبدة الحاجة، ولا عبدة الرجل، ولا عبدة قلبها وهو أعظم جائر مستبد. بل نظرة من أصبحت سيدة نفسها تطيع مختارة، وتعمل مختارة بهدوء من فاز أو قدّر له أن يفوز في الحياة. فتكتشف عند كل خطوة

جمالاً جديداً وتفرح كل يوم كأنها خُلقت خلقاً جديداً.

بقي عليَّ أن أشكر لجمعية «فتاة مصر الفتاة» دعوتها الكريمة التي مكنتني من الاجتماع بكنَّ أيتها السيدات وأجازت لي التعبير عن أفكاركنَّ. في الظاهر كنتُ أنا المتكلمة. ولكنكنَّ تعلمن أنَّ ما يفوه به الفرد فنحسبه نتاج قريحته وابن سوانحه، إنما هو في الحقيقة خلاصة شعور الجماعة تتجمهر في نفسه ويرغم على الإفصاح عنها. وإني لأغتبط بهذه المحادثة الصغيرة، وأهنىء مصر ببناتها العاملات المدركات معاني الحياة، وكلكنَّ هنا ذوات أثر في بيئتكنَّ وصاحبات فضلٍ على قومكنَّ. إننا نجتاز أياماً عظيمة تهزُّ النفوس إلى أعماقها وتلفتها إلى ما لديها من المواهب والممكنات. ألا فلنكن أهلاً لهذه الأيام بدروس نكتسبها من مرورها! ولنكثر من التمنى لأن ما نتمناه واقعٌ لا محالة، وأنا من المعتقدين أن مجرَّد الشوق إلى أمر والرغبة فيه كثيراً ما يكونان إنذاراً بوقوعه المحتم. والآن أعلم أنكنَّ تنقمن عليَّ جميعاً إن لم أضف كلمة أخرى هي بلا ريب حائمة في قلوبكن.

إن المنادين بحقوق النساء في فرنسا قد سمُّوا أنفسهم أحفاد «كوندرسيه» الفيلسوف الفرنساوي الذي دعا إلى المساواة بين الجنسين. وقد اتخذوا ذكرى وفاته في ٢٩ مارس من كل عام عيداً يحتفلون فيه بتحرير المرأة. وفي هذا الأسبوع الأخير من شهر أبريل ذكرى وفاة زعيم النهضة النسائية في هذه الديار وأحد مؤسسي الجامعة المصرية التي تجمعنا الساعة جدرانها: قاسم أمين. فمن واجب العرفان بالجميل أن نحيّي تلك الروح التي احتضنت في رحابها روح المرأة الحائرة. وأن نستحضر ذلك النظر الذي نفذ إلى قلب المرأة فأحبها في ضعفها وفي ضلالها، وفي تفطرها، وفي حقوقها المهضومة وفي مواهبها المنسية. وأن نتلمس تلك اليد الروحية التي خطّت يوماً

صفحات الدفاع عن المرأة ودلتها على طريق العمل القويم والاستقلال النفسي الذي هو دعامة كل استقلال صحيح دائم.

صاح قاسمٌ في القوم يهديهم ولكنه لم يفتْهُ أن تحرير المرأة في يدها أكثر منه في يد الرجل وأن العمل ألزم الأشياء لها. وأعظم ما يكرمُ به الحيُّ راحلاً عزيزاً هو الاهتداء برأيه والتمشي مع ما حسُن من مبادئه. ولقد تغذَّت فتاة مصر كل هذه الأعوام بروح قاسم فبرزت نبيلة ذات عزم وإقدام كما كان يصورها له المستقبل. لذلك كانت أجمل زهرة نضعها اليوم على ضريحه هي زهرة الشكران. وكانت أصدق تحيةٍ نوجهها إليه هي هذه التحية المزدوجة:

فليحي زعيم النهضة النسائية!
ولتحيِ المرأة المصرية ناهضة عاملة!.

الساعة المفقودة

جعلها أرباب التجارة حليةً نسائية، وأتقن الجوهري وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الشرى.

صورةٌ مصغرةٌ للكون، كذلك كانت ساعتي. مساحتها رمزٌ للفضاء، دورتها مرسح اللانهاية، حدودها حدود الإمكان، علاماتها مقاطع الوقت الذي رتّبه الإنسان، ساعاتها مقياس الأعمال، دقائقها خوفٌ من هجوم الرزايا وترقبٌ لوفود الآمال، ثوانيها دقات القلب. . . من الثواني يتألّف الزمان ومن نبضات القلب تُنسج الحياة نسجاً.

فيا لهول ثواني الزمان، ويا لهول نبضات قلب الإنسان! .

بين ثانية وثانية يلتقي العدوان في أحشاء الثرى: الماء والنار، فتميدُ الأرض بمن عليها، وتتفطَّر أساساتها فتقذف البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية وتزفر الطبيعة زفرتها القناة فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحّبةً ببنيها. تفتح صدرها مرحّبة فيتدحرجون إلى الهاوية التي ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبراً.

بين ثانية وثانية يتلاقى الجيشان في ساحات الوغى فتدوي رعود المدافع في الفضاء وتختطف بروق السيوف غالي الأرواح. ولأجل كلمة غالب أو مغلوب تندكُّ عروش وتنتصب عروش، تدمّر ممالك ويعمّر سواها، تخرب مدائن ويشاد غيرها، تتجندل أفرادٌ وتفنى مجاميع فترتدي الأقوام سواد الألوان وفي نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الأحزان.

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا يأس، تبتسم شفة وتدمع عين، يخون صديق ويخلص عدو، بين الثانية والثانية!.

وبين نبضة ونبضة هناك سر الأسرار. دماءٌ داخلة إلى القلب ودماء منبعثة منه، تتهافت عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية. بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أعماق العمر وانفعالات تشخص لمرورها ذرات الكيان. اشتعال الفكر وخمود العاطفة، ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ، لذعات الغرام والحسرات العظام. قنوط ورجاء، سعادة وشقاء. هتاف الروح المسلّمة ولهاث الروح المودّعة!.

* * *

يا ابنة أبيكِ! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء، ويخوننا يوم الصفاء، ويهجرنا حين اللقاء. فأنتِ غادرةٌ خائنة هاجرة كالزمان، يا ابنة الزمان!.

كم من ساعٍ طيبات وقّعت مرورهنّ على دوران عقربيك وفكري يناجيكِ بأحاديث هداه وضلاله! أبسمُ لكِ عند السرور فأتخيلك صامتة تبتسمين وأتنهّد حيالك يوم الأسى فأتوسّمكِ تتنهدين وتحزنين، وكأن عقربيك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين.

لما أفنت قلبي وحدةُ القلب ضغطت بكِ على ساعدي قائلة «أنتِ الصديقة التي لا تخون». ولما مزّقت سمعي أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية خاطبتك قائلة «أنت لا تؤذين لأنك لا تتكلمين». ولما أذابني الجهل بدعواه والغرور بسخافته نظرتُ إليكِ قائلة «أنت عالمةٌ لذلك تصمتين».

وكنتِ تعزيتي!

وكنتِ زماني، يا ابنة الزمان!.

وعلى هذا ما كان أطول إعراضك عني وأقل اهتمامك بي! في النهار كنتِ تطوقين ساعدي فيوجعه أثر سلسلتك وأجيب أنا على هذا العنف بلمسة المداعبة. وفي المساء كنتِ تستريحين بجوار وسادتي فأوقع على موسيقاك الساهية ألحان أحلامي وآمالي، وفي الصباح كنتِ أول عين أشاهدها وأول روحٍ أستجوبها.

كل ذلك وأنت لا تنتبهين ولا تعلمين.

وها قد هجرتني. ففقدتُكِ وفقدتني فسيري بحراسة الله وانسيني!.

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقينها!.

فإذا وقعتِ في يد شرير وقصد استعمالك ليؤذي أخاً له فانقلبي أفعى لساعة ولا تبرحي مفرغةً فيه سمَّكِ حتى تصرعيه قتيلاً.

... لكن لا، لا! ليس الأشرار إلا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم، لو كنتِ تعلمين. وهم خليقون بالرحمة أكثر من الأخيار الصالحين. فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أبٍ فقيرٍ لتكوني من نصيب فتاةٍ لم تلبس

في حياتها حلية. زيّني يداً شوّهت خشونة الخدمة جمالها ونامي على زندِ الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبُّب! نامي هناك واسعدي، ولو ساعةً، قلباً بائساً يحسب السعادة في الغنى!.

نامي هناك وانسيني، ولكن!.

إن كان لديك ذاكرة تذكر، يا ساعتي الصغيرة المحبوبة، اذكري لحظة ما شهدتهِ معي من المسرات واللهفات، اذكري واحفظي ما تعرفين!.

ولكن... ألستِ ابنة الزمان الذي ننسبُ إليه في ضعفنا كل شيء وهو في قوّته لا يبالي بشيءٍ؟ ترين بأي حافظة تذكرين، وبأي ذهنٍ تتأملين؟ إنما علاماتك مدادٌ قد تحجَّر، وعقربك أصبع يشير إلى علامةٍ يجهل منها المعنى، وأنت آلة ليس إلا، وإن كنتِ آلة الآلات المثلى.

أنت ابنة الزمان الناسي،
وأنتِ مثله لا تذكرين!.

ميّ

رسالة من باحثة البادية إلى مي زيادة:

إلى الآنسة ميّ

عزيزتي ميّ،

لا تستغربي يا سيدتي إني دعوتك «بيا عزيزتي» وسأدعوكِ باسمك على غير معرفة شخصية سابقة. أقول شخصية وأحدّها لأني عرفتك من كتاباتك الشعرية الجميلة من قبل وتعرفت منها بروحك العالية الهائمة في الفضاء وكأنها تبحث عن مستقرٍ لها فلا يكاد يعجبها مكان تستقرُّ فيه.

وتعرَّفتُ بك بالأمس بل وارتبطت بكِ من دعائك عليَّ بالعذاب المعنوي كأني أنا المعنية بقول جميل:

وأول مــــا قــــاد المــــودة بيننـــــا
بـــوادي بغيــض يـــابثيـــنُ سبـــابُ
وقلنـــا لهـــا قـــولاً فجـــاءت بمثلـــهِ
لكـــلِّ مقـــالٍ يـــا بثيـــن جـــوابُ

وإنما حاشا أن يكون دعاؤك عليَّ سباباً وحاشا أن يكون له جواب عندي من مثله فإني لم أُقابله إلا بالضحك والحلم الذي ركّب في غريزتي.

لماذا يا ميُّ تدعين عليَّ بالعذاب المعنوي؟ ألا إنما العذاب البدني أخفّ منه وطأةً وأعفى أثراً. على أني جرّبت كليهما وذقت الأمرَّين منهما معاً. تقولين «لأنه النار المقدسة». نعم لقد أعطاني من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لمثلي حتى جعل البون بعيداً جداً بيني وبين هذا العالم غير القديس.

تقولين «إنه النار التي تطهّر. حقيقةً إنه تلقّى وجداني بالتطهير منذ أن كان لي وجدان حتى صيَّره شفّافاً يظهر كل شيء ويتأثر لأقل شيء وهذا فيه من الضنى والخطر ما فيه.

تقرّرين «إنه النار التي تحيي». نعم يا ميُّ. إنه أحيا روحي حتى أحرقها لأنه كان كمصباح سيَّال كهربائه شديد ولكن فتيلته ضعيفةٌ لا تحتمل.

هو «النار التي تليّن» هذا ما أبديتِ. ولكن ألا تعتقدين أن اللين قد يؤذي ولا يفيد. خصوصاً في هذه الدنيا التي كلها صدام وعراك وأنه لا يفلّ الحديد إلا الحديد. إنه ألانَني حتى صيَّرني ماء. وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع أنه أصل الحياة!!.

يصبُّونه فينصب ويريقونه فيختفي في الأرض ويضعونه في كل آنيةٍ معوجة وملوّنة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بما يراد به من الألوان. تبخّره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقذف به إلى الأرض وآونة تعاكسه بصقيعها فيتحوّل برداً، وآونة تحمي عليها براكينها

فيخرج ملتهباً وحيناً تخبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو بريءٌ. ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكّراً فيحلو ويذيبون به الحنظل فيمرّ. وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له الجميل. وهو بلا ثمن في أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء في أقلّها. إنه مثلي يا ميُّ يذهب ضياعاً.

وختمتِ حسن تعليلك لعذابي بقولك «إنه النار التي ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعاني» الخ.

نعم يا ميُّ إنني الآن على أجنحة اللهيب ولكني لم أصل بعد إلى السماء وإذا وصلتها فلن يعود العالم يراني فهل يا ترى ستعجبني السماء؟ إني أشك في ذلك. أني أول ما حفظت من الشعر حفظت المراثي وأوّلها رثاء الأندلس. وكنت في حداثتي أقرأُ كثيراً ديوان المتنبي وأعجب بروحه العالية وبنفسه الكبيرة وأظنّه هو الذي عداني في ذلك وسمّم آرائي، رحمه الله إني ألذّ كثيراً بهذه العدوى.

وقد قال لي أخي مرةً بعد حديث كنت أشتكي له فيه الدنيا وأهلها وأقول «لعل الله يجزيني على هذا في آخرتي بالجنة».

قال متهكماً «أنا واثق يا شقيقتي أن الجنة أيضاً لن تعجبك لأنه لا يكاد يسرك شيء». أستغفر الله.

إنك يا ميُّ خالفت المألوف في التمنيات والمجاملات الفارغة وهي كثيرة وشائعة جداً الآن (بمناسبة عيديّ الميلاد ورأس السنة المسيحيين). قلت «ابتسمي له» أي لدعائك «إن شئت وإلا فلا تصغي ولا تسمعي واسأليني عما أهمس به لأجيبك أني أحمد الله على إبلالك وإني أسأله أن يديمك سالمة» الخ.

لا يا عزيزتي إني أكره الكذب والمجاملات الفارغة ولذلك أصغيتُ وسمعتُ وابتسمتُ (حسب أمرك) وتسرني جداً صراحتك حتى في الدعاء عليَّ.

أتدرين يا ميُّ أن ذلك اليوم الذي تمنَّيتِ لي فيه العذاب كان فيه عيد ميلادي أيضاً وإني تفاءلت خيراً بدعائك وافتتحت عامي الجديد بالضحك من تمنيكِ وبصداقتي لك تبعاً لذلك التمني المعكوس. أشكر لكِ يا عزيزتي أمانيك لي ورغباتك الصادقة وأقرّ لك أني واقعة فيما رجوت لي والحمد لله ولكن يا ميُّ لا أتمنى المزيد. إنه عذاب طاهرٌ لا يتعدَّى الميل إلى السكون والشعور بشيء من الحزن الشعري الجميل. ولكنه ولله المنة والشكر لا تخامره شائبة من الندم ولا من الأسف الأثيم وأخشى أن يزيد ضرام النار التي طلبتها لي فأحترق يا ميُّ أو أصل إلى ذلك الحد الذي لا أريده لنفسي ولا أظنك تريدينه لي.

الساعة المفقودة

عجيب يا سيدتي أنك تريدين عذابي وأنا أُريد هناءك. أتدرين ماذا سألقيه عليكِ فيفرحك؟.

إني وجدتُ ساعتك المفقودة والتقطتها. رأيتك ترثينها بحرقة فجئت لأمسح دموعك لأني أحبُّ دائماً أن أمسح دمعة المحزون. تعالي إليَّ لتأخذيها وتستغفريها من وصفك إياها بالغدر وبعدم الإحساس. فإنها أحسَّت بشوقي لرؤيتك فأتت تقدمة لمجيئك ولتعارفنا.

إنها بثَّت إليَّ ما كنتِ تشكينه إليها من العواطف والآلام. عثرت

عليَّ وعثرتُ عليها لنكفي قلبك شرَّ الفناء من الوحدة ولنؤكّد لك أنك وجدت «الصديقة التي لا تخون».

حكاية الرجل

والآن فلنعد إلى حكاية الرجل.

عجيب جداً يا سيدتي أمر هذا المخلوق الغريب الأطوار الذي يسمى «بالرجل». إني أعتقد أنه كريم شجاع وله قلب حساس ولكني أظنه (وبعض الظن إثم) أنانيًا قبل كل شيء ورأيي أن أنانيته وحدها هي أصل رذائله فهو يهضم حق المرأة ويستعبدها لا لأنه يبغضها أو يتمنى لها السوء ولكن ليلهو بها وهو يحبّها. ويموت لأجلها لا لأنه يحبها ولكن ليلهو بها وهو في كل ذلك واسع الحيلة قوي الحجة فيقنعها فتصدقه وهو كذوب.

أما المرأة فهي دائماً تحترمه وتحبه لأنها تحبه صادقةً وإذا كرهته كرهته علانيةً ولم يكن لذلك البغض من دواء. عرف ذلك أبو الطيب فقال:

وإن حقدتْ لم يبقَ في قلبها رضاً
وإن رضيتْ لم يبقَ في قلبها حقدُ

هي صادقة مخلصة دائماً حتى وهي خاطئة. هي تحبُّ لتفنى في الحب ولكن الرجل يحب ليعيش متمتعاً بالحب. هي تحزن وقت المصاب لتتفرغ للحزن، ولكن الرجل لا يحزن إلا ليبحث عن تعزية وسلوان.

المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت. إنها تعلم أن حريرها

الذي تقدمه للملأ زينةً وحليةً سيقتلها ولكنها لم تحاول قط الخلاص منه.

أما الرجل فهو كالنحلة ينتقل من زهرة لزهرة متروّضاً وقد يطيل المكث على زهرةٍ ناضرة وإنما ليمتصَّ منها نضارتها وماء حياتها. إنها تحب الأزهار حيناً ولكنها تلهو بها أحياناً فتتركها هشيماً. وهي تقدم للناس عسلاً فيه شفاءٌ لهم وشمعاً نافعاً ولكنها تعملهما لغذائها وسكنها قبل كل شيء.

ظلمنا الرجل حقوقنا لا لأنه كان ينوي ظلمنا وإنما هو أخطأ كثيراً في حسبانه إن ما يزيد في قوتنا يُضعف من قوته هو. لعلّه ظنَّ أن مملكتنا واحدة ولذلك نظر إلينا نظر الدعيات الثائرات. وإنما نحن نريد له السعادة والمزيد من القوّة في مملكته ونرجو منه أن يفكَّ عنا الخناق في مملكتنا المستقلة التي تشدّ أزره ولا تفكّر في إضعافه قط مهما بلغت من العزّة والقوة. إننا نتقدم إليه كأننا ساعده الذي يُريد أن يخدمه لا كأننا يدٌ غريبة تريد أن تضربه. إننا منه وهو منا فليطب نفساً وليقرّ عيناً وليعطنا ما نشاء!.

وإنما نحن يا ميُّ ضايقناه في بعض شؤون مملكته حتى ظنَّنا نريد منازعته فيها. لنترك له السياسة التي يحبها وحمايتنا. وأقول لك همساً «إننا لا ننفع بدونه ولكنه هو أيضاً لا ينفع من غيرنا»!.

إن المطالبات بحق الانتخاب وإن كنَّ يطلبن حقاً إلا أنهن ظالمات الرجل وأنفسهن معاً. لماذا يرمن مشاركته في الجلوس على كراسي «البرلمان» ولا تقدّم واحدة منهنَّ صدرها للقاء كرّات المدافع ونصال الفناء في الحرب. الحق أحقّ أن يُتبع.

ليهنأ الرجل بمملكته. إننا لا نهزُّ عرشه ليتداعى إلى السقوط كما تقولين ولكنا نهزّه لنطلب منه. . . «الدستور».

باحثة البادية

الطبيعة المعمرة المدمرة

بتلك الشجيرة الخضراء كنت أزيّن ردهة الاستقبال كل يوم عيد وكل يوم اجتماع.

وفي أحد الأمساء، وقد خرج الزائرون، سمعنا جلبة سقوط وتكسر؛ فسارعنا، فإذا الهرّة البيضاء واقفة في الظلام وقد دهشت لما نتج عن تلك القمزة الواحدة من قمزاتها العديد.

وكان الإناء الخزفي قد انقلب وتحطم فتبعثرت أجزاؤه؛ وانفصل عنق الشجيرة المليح عن جذعها وتجندل بعيداً كمن يعلم أنه صائر إلى لا شيء، بعد الذبول والجفاف، مع وريقات أنيقة لصقت به فتخللت خضرتها تلك الخطوط الدقيقة من حمراء وبرتقالية وفستقية وصفراء.

فجمدت جمود الآسف.

ثم وضعت العنق الطويل وما انتشر عليه من بهيج الوريقات في آنية طافحة بالماء، لعله يستبقي حسنه أياماً أخرى أو ساعات. وأحكمت الجذع وما تشبّث به من متراكم التراب في إناء خزفي جديد، وجعلت له مكاناً توفّر فيه الهواء والنور والحرارة.

وما انقضى أسبوع وجاء آخر إلا وبدت طلائع الوجود في ذلك الجذع المجدوع، وأسفرت عند جوانبه بسيمات خضراء.

فزدت تعلقاً به وحرصاً عليه، أرقب فيه تفرّع قدود الأغصان وتكوّن صور الأوراق؛ ولم يعد ينتظر سوى مرور الأيام لينمو ويتكامل.

فوقفت أعجب به ذات صباح وهتفت قائلة:

ـ «بورك بك، أيتها الطبيعة السخية الوهوبة! ما أتلفت يد الضياع ودمرت إلا رممت يد العطاء منك وجدَّدت. ستُردّ إلي بفضلك شجيرتي الحسناء، أضعها في صدر الردهة فتبدو لي الردهة بها إيواناً صغيراً. بورك بك أيتها الطبيعة الملبّية الشفيقة، لأن إشارتك الأخيرة هي دوماً إشارة البذل والبناء!».

في هذه اللحظة أقبلت طفلة الهرة المولودة حديثاً تفتح عينيها المغمضتين للتعرّف بما حواليها. وما لبثت أن لمحت الآنية الخزفية أمامها: فمدت إليها يدها الصغيرة وقمزت إلى حافتها تشتمُّ وريقات النبتة المتجددة.

... ترى، أتأتي البنت ما سبقتها الأم إلى فعله؟

بكاء الطفل

سمعت الطفل يضحك فاختلجت روحي الأثيرية في جسدي الترابي. إن صوت هذا الرضيع ليرجِّع صدى أصوات الملائكة، وضحكت البريئة المطربة لتحث المفكر على اكتناه الأسرار الأزلية الغامضة.

ثم سمعت الطفل يبكي فهلع قلبي فرقاً وشعرت بشيء كبير يذوب فيه. أواه من بكاء الأطفال، إنه أشد إيلاماً من بكاء الرجال!.

سمعت الطفل يبكي ورأيت العبرات تنحدر على وجنتيه الورديتين، فكانت تلك اللآلىء الذائبة جمرات نار تكويني.

ظل الطفل يبكي ودلائل العجز واليأس بادية على محياه الوسيم. ظل يبكي بكاء متروك منفرد لا يحبه في الدنيا أحد. الطفل الحبيب يبكي فكيف أعيد التألق إلى عينيه؟ كيف أسمع في ضحكته صدى أصوات الملائكة مرة أخرى؟.

* * *

فدنوت منه متوسلة،

وضممته إلي بذراعي التي لم تضم يوماً أخاً أو أختاً صغيرة، وأجلسته على ركبتي حيث لا يجلس سوى أطفال الغرباء، ورفعت عقارب شعره عن جبهته الطاهرة بيد ترتجف كأنما هي تلمس شيئاً مقدساً.

... ثم وضعت على تلك الجبهة شفتيَّ ساكبة في قبلة كل ما يحوم في جناني من شفقة وانعطاف. ترى من ذا ينبه الانعطاف والشفقة بمقدار ما يفعل الطفل الباكي؟.

صمت الطفل حائراً لأنه شعر بأن روحاً تناجي روحه. صمت هنيهة، ثم عاد فحدّق فيَّ بعينين ملؤهما الحزن والتعنيف معاً. أتعرفون كيف نعنف أحداق الصغار؟ حدق فيَّ سائلاً عن أعز عزيز لديه، وقال بصوت هادىء كأصوات الحكماء: ماما، ماما!.

* * *

صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين، يا أم الصغير؟ لست بالعليلة لأني رأيتك منذ حين تميسين بقدك تحت قبعتك، والجواهر تطوق العنق منك. أنت صحيحة الجسم، فلماذا لا تسرعين؟ ألا تحرقك دموع الطفل الذي لا ترين؟ ألا يوجعك الشهيق الذي لا تسمعين؟.

عودي من نزهاتك الطويلة، وزياراتك العديدة، وأحاديثك السخيفة، عودي واركعي أمام الصغير واستميحيه عفواً.

لقد خلقت امرأة قبل أن تكوني حسناء، وكيفتك الطبيعة أُماً قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة.

تعالي اسجدي أمام السرير، سرير الصغير!.

اسجدي أمام هذا المهد الذي لعبت بين ستائره طفلة، وحلمت به فتاة، وانتظرته زوجة، فما خجلت أن تهمليه أُماً. اسجدي أمام المهد فإن المهد محجتك القصوى!.

اسجدي أمام السرير، ولا تدعي رب السرير يبكي لئلا تملأ قلبه مرارة الوحدة، حتى إذا ما شبَّ رجلاً تحولت المرارة كرهاً وصرامة.

اسجدي أمام السرير وناغي الصغير! إن دموع الأطفال لأشد إيلاماًمن دموع الرجال.

دمعة على المغرد الصامت

ما أسرع ما تتمزق أثواب الورود، وما أتعس القلوب الشديدة التأثر!.

يمر النسيم العليل على الأزهار النضرة فتتشقق بوطئة جلابيبها وتنتثر وريقاتها. كذلك تكفي ملامسة الألم النفس المنفردة ليثير منها الأشجان ويستقطر من محاجرها العبرات.

من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر، ومن النساء من لا يفهمن الحياة إلا بالزينة والغنى وارتفاع القدر.

أما أنا فلا هذه العطايا تغرني ولا تلك المواهب تستهويني. شيء واحد تام الجمال في تقديري وهو ما يشترك في تركيبه قسم كبير من الفكر وقسم أكبر من القلب. شيء واحد ينبه إعجابي وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا ـ هو زهرة نادرة المثال، شمس الذكاء والمعرفة تحييها، ومياه العواطف العذبة ترويها!.

ما أتعس القلب الحساس وما أَلينه لاستحكام الجراح في ثنياته!.

العبودية والرق

من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض: تجعل الأكمة الجرداء قرب البحر الزخر، وخضرة الخمائل وخصب الواحات وراء رمال الصحارى وقحط القفار. حيال الذروة الأرستقراطية يزينها تاج الملكية تحفر البطاح لسيل العبودية الجرّاف حيث تتزيّف السجايا وتتلاشى المكرمات. ما أقامت ارتفاعاً إلا أوسعت تخومه تجويفاً، وما جادت بنابهٍ إلا بلتْ بمعتوهٍ، ولا سلّمت بوليدٍ إلا ودّعت بصريع.

ألا إنما الحياة غنية بالمال والذكاء والكرم والصلاح والحب والجمال والفخار. على أن في كفتها الأخرى ما يعادل الأولى من شقاء وفقر وخمول وقبح وكره وانحطاط. كأنها مرغمة على حفظ النظام في توازنها، إذا هي أسرفت في نقطة تعقبت الإسراف بالاقتصاد في ما يحاذيها. فحيث يمتد الرخاء تنتشر التعاسة، وحيث يكثر الخير يقل، وحيث يتغلب قوم يندحر قومٌ. هنا القصور والصروح والأواوين وهناك الأكواخ والخصاص والزرائب. حتى الصحة ذاتها قتل متتابع، وكأن نفَس الطفل البريء معمل هلاك يفتك بمكروبات لو انتشرت في جماعة لأودت بهم.

ترى هل امتداد الكون المهيع مسافة محدودةٌ إن نحن رأيناها لا تُحدّ فلقصر النظر، وقواه كمية معدودة إن نحْن زعمناها لا تُعَدُّ فلضيق الإدراك؟ هذا سؤال يخرجنا من الاجتماع والتاريخ لتدخلنا محاولة الجواب عنه في الفلسفة واللاهوت، وما نحن منه إلا في دائرة تبتدىء عندها الأبحاث حيث تنتهي.

* * *

كتاب «مانو» هو أحد كتب الهند المقدسة وقد حوى شرح مذهب البراهمة وتاريخ مدنية الآريين منذ نشأتها، فجاء فيه أن أصل العبيد سبعة: أسير الحرب، ومعدم رضخَ لمن يكفل معاشه، وابن العبدة المولود في بيت المولى، والفرد مهدى هدية أو مبيعاً بيعاً، والمنتقل بالإرث من الوالد إلى الولد، والمستعبد عقوبة على جناية ارتكبها، والمستعبد لعجزه عن تأدية دين أو ضريبة أو غرامة. وسواء ألَمَّ هذا الإحصاء بكل الأصول أو أغفل بعضها فالعبودية قديمة كالحرب، والحرب من خواص الخليقة. لقد حاذت طبقة العبيد طبقة الأحرار منذ فجر العمران وكأنها في تلك المحاذاة تقول:

هُمُ جيرة الأحياء أما جوارهم فدانٍ، وأما الملتقى فبعيد.

وكيف «يلتقي» إثنان يمتلك أحدهما الآخر امتلاكاً لا يختصر على تضييق الحرية الشخصية شأن الرجل مع المرأة والمؤدِّب مع التلميذ، وإنما هو حذفها ليصير العبد آلة خضوع وعمل، تُحصى من متاع المالك مع المواشي وما شاكلها.

مأساة دهرية يتألم لذكرها القلب الشفيق، بيد أن المؤرخ المفكر يراها فجراً محصحصاً في ليل الهمجية، وأول بادرة من بوادر الرفق من

حيث إدراك وجوب الاحتفاظ بحياة المغلوب والحرص عليها. هي دليل التقدم وإن نَسَبها هربرت سبنسر إلى الشبع بتقريره أن أول العبيد هم أسرى الحرب، وقد جرت العادة بأن يأكلهم الغالب في ولائم النصر. وأنه عندما كثر عددهم أُجِّل قتل بعضهم للتلذذ بلحمانهم المشوية في وليمة آتية ليصير النصر الواحد نصرين. فاستخدموهم خلال هذه الفترة فانتبهوا للحال إلى أن حياة الأسير أنفع للغالب من موته.

وعلى كلٍّ فإن الإبقاء على الأسرى يظل كبير الأهمية لإثباته بأن النوع، حتى في تلك الهمجية القصوى، ذو نظرة صائبة وإرادة قوية تمكنه من ممارسة الأبيقورية قبل ولادة أسلاف أبيقورس، فيضحي اللذة الصغيرة للحصول على لذة أعظم... وأهميته الكبرى في إيجاد العبودية وهي الفارق الأول للدرجات الاجتماعية، والمرتبة الأولى لتقسيم العمل الذي قامت عليه دعائم الحضارة. فلولا إناطة الأعمال الدنيا بأولئك القوم ما تفرّغ المحارب لبسط سلطانه، ولا أبدع أعوانه ما تستلزمه فنون الحرب وتؤدي إليه من عمل زراعي وصناعي واقتصادي وسياسي. ولولا ذلك التقسيم وهذا الإبداع ما ظهرت الحقوق والواجبات، ولا كانت النُظُم، ولا توصّل البشر إلى تخزين قوة وحذق يستحيل وجود مثلهما عند العشائر الأولى.

لقد عرفت العبودية شعوب الشرق قاطبة من الهند والصين إلى مصر ففينيقية فآشور، فالفرس الذين ضموا تحت لوائهم أُمم آسيا الغربية. فاختبروا جميع صنوف العبودية في الحقول والمنازل والإيوانات، منذ أيام بابل إلى عهد اليونان. وحالة العبيد متماثلة في كل مكان يتصرّف السيد بهم بيعاً وحياة وتعذيباً وموتاً، إنما يختلف هذا التصرف باختلاف فطرة الشعوب واستعدادها. فبينا حالتهم في الهند

على أسوأ ما يكون إذا بهم في الصين على هناء نسبي لا يُنظر إليهم كأشياء أو آلات، بل كأناس يحميهم القانون جاعلاً حياتهم في مأمن من الخطر وأعضاءهم سالمة من التشويه. وليس في تاريخهم ثورة واحدة على تجمُّع مئات الألوف منهم حتى اضطرت الحكومة غير مرة إلى إعتاقهم بالجملة، طغمة بعد طغمة، لتفسح مكاناً للمستجدين من أسرى الحروب والجناة، والعصاة الثائرين على الحكم الأعلى. ومع أنهم ملك الأمة المشاع فهم يعيشون في العائلة كوضيع أفرادها، ولكل عبد أن يُعتَق بعد سن السبعين ولكن كثيرين كانوا يأبون الحرية لتعلّقهم بمواليهم. أما في منشوريا فلم يستعملوا إلاَّ للزينة والأبهة في الأعياد القومية والاحتفالات الرسمية. ثم تدرجت العبودية إلى الرق بالعمل الحرّ، فكان التطور الاجتماعي في الصين غير متخلف عنه في الغرب.

أتصدّق أن اليهود «شعب الله الخاص» كانوا يمتلكون بعضهم بعضاً؟ إن الشريعة تبيح لهم استعباد أخيهم اليهودي ستة أعوام، أما غير اليهودي فعبدٌ حتى الموت. ولا يُفهم ما ورد في إنجيل يوحنا قولهم للمسيح «نحن لم نُستعْبد لأحد قط» وهم خاضعون يومذاك للاحتلال الروماني، وقد بيعوا في أسواق أورشليم، واستعبد سلمنصر عشرة أسباط منهم، وظلّ سبطان آخران في قيود أهل بابل سبعين عاماً. وقد جاهروا في كتاباتهم بأنهم استُعبدوا سبع مرات في أرض الميعاد. ومن يجهل بيع عيسو بكوريته ليعقوب بأكلة عدس، أي بيع كل حقوقه وقبول العبودية لذراريه؟ ولكن العرب الذين ينتسبون إلى عيسو كادوا يمحون بسيادتهم وعظمتهم هفوة السلف الجائع. وقد باع بنو يعقوب أخاهم يوسف للتجار وباعه هؤلاء في مصر فخدمها في السنين الجوائح، وجرّ إليها ذووه فانتهى بهم الأمر إلى الرق. ولم يكن ليطلق سراحهم لولا الضربات العشر الذائعة الصيت. على أن العبودية عندهم

أخف منها عند غيرهم، ترى بين العبد والمولى تبادل الأمانة والرعاية فيحفظان السبت سوياً، وللعبد أن يتزوج وينشىء عائلة وحريته ميسورة بالمال. إن قتله مولاه يُقتَل، وإن جرحه أعتقهُ، فإذا انقضت السنة السادسة ورفض أن يتحرر قُدّم إلى قضاة الشعب فثقبوا أذنه عند باب سيده. ولقد كان ثقب الآذان رمزاً للعبودية عند شعوب كثيرة. أفتعجبن بعد هذا يا سيداتي، إذا أنا أذريت ما يشعُّ في آذانكن من فرائد الدرّ والجوهر وما تهدّل منها من الحجارة الكريمة وغير الكريمة، لأحدّق في ذلك الثقب الذي يشوّه أذني أنا الأخرى، وأن كفيته عار الأقراط؟ إني لأتأمله عندكن وألمسه فيّ مبتسمة خجلى.

* * *

حمل الفينيقيون نظام العبودية مع ما حملوه من الأنظمة والعادات إلى اليونان فجرى هؤلاء عليه وكان العبيد عندهم أنواعاً: نساءً لخدمة البيت، ورجالاً للفلاحة والزراعة وخدمة الجيش وسائر الأعمال الخشنة، وصبية متأنقين يكرمون الضيوف ويعدّون المركبات ويرافقون ابن مولاهم في تنزهه وجولانه ويشاطرونه دروسه وألعابه، كأنهم المماليك الصغار في بعض البيوت الشرقية. عوملوا برفق فأحبوا مواليهم إن غاب أحدهم يوماً تألموا لفراقه وانتظره باكين، وإن عاد أقبلوا يلثمون يديه ووجههُ فرحين، وإذا اكتسبوا ثقته بحسن سلوكهم ورجاحة عقلهم أطلق يدهم في مالِهِ وشؤونِه وأنالهم عنده مكانة. قد يكون سبب ذلك أن اليونان كانوا يقدرون الأعمال اليدوية، حتى أن هوميرس ذكر العمال على مقربة من الأبطال وقال إن الحدادين والمهندسين والنجارين كانوا يُدعون مع الأطباء والعرافين والشعراء إلى ضيافة الملوك. وكان أبناء الأسيرات أحراراً مثل تويسر المولود من أسيرة لم يكن من فرقٍ بينه وبين أخيه أجاكس (المولود من حرّة) ابن

تلامون ملك أجين. ولا عجب والملوك والملكات كل يوم عرضة للأسر والاستعباد. مقدورٌ لم ينجُ منهُ ولا الآلهة، إذ أن البشر أسروا أبولون ونبطون وفولكان ومارس، فامتثل هؤلاء الآلهة وخدموا صامتين حتى رقفت بهم يدُ القَدَر.

أما الإسبارطيون فطبعوا العبودية بطابع شدتهم. العبيد هنا ملك الجمهور يلبسون جلود الحيوانات ويُسخَّرون لباهظ الأعمال بصرامة عسكرية، ويُسكَرون إلى درجة العربدة وفقد الشعور ليرى الأحراء كم يحطُّ الشراب من قدر الشارب ويعرضون عن الخمر ويأنفونها. نحن تُضحكنا حكاية جحا الذي أرسل ابنه يستقي ماءً فأوصاهُ أن لا يكسر الجرة في الطريق وضربهُ ضرباً مبرحاً. فاعترض الجار لأن الولد عوقِب قبل أن يغادر البيت وقبل أن يرتكب الذنب. فأجاب جحا «وما نفع الضرب بعد كسر الجرة»؟ كذلك اعتاد أهل إسبارطة ضرب العبيد ضرباً عاماً لا لإثم جنوا وإنما ليذكروا دواماً أنهم عبيد أقلّ ما يتهددهم السياط. ويحظر عليهم حتى القوة البدنية فيقتلون القوي منهم، أو يؤدّي مولاهُ ضريبةٍ لأنهُ لم يوقف نموَّهُ. وكثرة الانتصارات والفتوحات مورد عبودية متدفق كان يضاعف عددهم على عدد الموالي سبعاً أحياناً فيُفتَكُ بهم بأساليب مختلفة تخلُّصاً من شرهم. وروى ثوسديدس أعظم مؤرخي اليونان، أن الموالي سألوا عبيدهم مرة عن الألفين الأشد بينهم بأساً والأقوى شكيمة ليعتقوهم، فقام العبيد بانتخاب ذينك الألفين وتناولهم السادة فزاروا بهم الهياكل ثم اختفوا ولم يعد يظهر لهم من أثر.

وكم من تحالفٍ للعبيد مع أعداء إسبارطة وكم من ثورة جعلت السادة في خطر مقيم. وقد تلظلظوا مرة وكان تهديدهم مخيفاً فاضطر الأحرار إلى طلب الهدنة والمساومة مع الزعيم دريماكس. ثم عادوا

فاغتالوه بعد عقد الاتفاق. فاستأنف الثوار هياجهم وأقاموا لهُ مذبحاً جعلوا عليه هذه الكلمات «إلى البطل المحسن». ويقال إن هيكل أفسس يعود تشييده إلى اتفاق، عقب ثورة، بين الموالي والعبيد. بيد أن تلك القلاقل والاضطرابات وتدخُل العبيد في جميع الأعمال بالتدريج قضت على الجمهوريات اليونانية وهيأت البلاد للفتح الروماني.

وما كان أشبه حالتهم عند الرومان بهاد عند الإسبارطيين فعمدوا إلى العصيان والحروب، وكادت حرب إسبارطقس تؤدي إلى خراب روما لولا قتل العبد الزعيم الذي قضى مجدفاً على اسم روما الممقوتة.

جاء دور التحرير تحت تأثير الفلاسفة فأخذ العبيد يتعاطون جميع أعمال التجارة، وتيسرت لهم المناصب السياسية فارتفع بعضهم ارتفاعاً عظيماً مثل نارشيسس مستشار الأمبراطور كلوديس الذي حرّض على قتل الأمبراطورة مسالينا. واشتهر آخرون بالشعر والفلسفة مثل ترانتسيوس الشاعر الهزلي، والشاعر هوراتسيو، وابكتتس الفيلسوف الرواقي وغيرهم. وكانت كلما علَت مكانة العبيد هبطت الدرجات العليا إذ أن أولئك لم يكونوا يطلبون المساواة للمساواة وإنما يرمون إليها ليصيروا هم سادة ويمسي الموالي لهم عبيداً.

والمدهش في كل هذا أن الفلاسفة لم يقبِّحوا العبودية ولم ينكروها بل أقروها مع أن منهم من ذاق مرارتها كديوجنس الكلبي، وابكتتس السابق ذكره، وأفلاطون الذي ظلَّ أسيراً في مصر وصقلية حتى فداه أحد أصدقائه. وكل ما امتاز به أفلاطون هذا أنه لم يضرب عبده بيده لأن الفلسفة والشعر رقَّقا منه النفس ولطَّفا الشعور، فحملاه على أن يوكل إلى سواه تنفيذ العقوبة في مملوكه!.

يوصلنا هبوط روما إلى مطلع القرون الوسطى التي تكيفت خلالها الطبقة السفلى تكيُّفاً خاصاً. لم تُبلغ العبودية بل بالعكس بقيت منتشرة في البلدان المختلفة ولها في ليون بفرنسا، وفي روما بإيطاليا، أسواق عامرة بالتجارة الآدمية من السود والبيض. ومرت العصور، فاكتشف كولمبس القارة الأمريكية في أواخر القرن الخامس عشر، ولم يُهْمَل هذا المرفق التجاري بل كانت له أهميته ونظّم بعدئذٍ الإسبان والبرتغاليون المتاجرة ببني الإنسان تنظيماً دقيقاً بين العالمين.

لم تلغَ العبودية إنما امتازت القرون الوسطى بشيوع الرق الملازم لنظام الإقطاع في أنحاء أوربا. لقد تسايرت العبودية (Slavery, esclavage) والرق[١] (Serfdom, Servage) في جميع فصول التاريخ فاختلط معناهما والتبسا في اللغات المختلفة وحسبهما الناس مترادفين لمعنى واحد. أما الفرق بينهما فهو أن العبد يملكه سيِّدٌ وهو لا يملك شيئاً. وأما الرقيق فملك سيدٍ يملِّكه أرضاً مقابل ما يفرضه عليه من ضريبة وخدمة وطاعة قصوى. العبد ينزع من بلده وأهله ويتبع سيده المطلق. أما الرقيق فيظل في ديار جدوده وسيادة المولى تحددها العادة والمصلحة. إذ ما نفع أرض لا يد تعمل فيها؟ فمِن مصلحة الشريف أن

---

(١) لم أجد حتى الآن كلمة عربية لهذا النوع من الرق أو الاستخدام ولعل سبب ذلك أنه لا يكون إلا في البلدان الزراعية. وقد كان شائعاً في بلاد السودان ويطلق السودانيون عليه اسم الرق ولكنهم يطلقون اسم الرقيق أيضاً على العبد المشترى. وكان الملاك في لبنان من الأمراء والمشايخ ورؤساء الأديرة يسمون الفلاحين المقيمين في أملاكهم يعملون فيها شركاء أو مرابعين وسموا في قصة معاوية مع ابن الزبير عبيداً ولعلهم كانوا عبيداً بالفعل.

تعمر الأرض وتنتج له الخيرات. ومن مصلحة الرقيق أن يشتغل في أرض يحبها وله من نتاجها ما يكفي ـ ولو بالإجهاد ـ لإعالة بيته وأولاده. فضلاً عن أن الإغارات الخارجية وقلة الأمن في تلك الأيام كانت تقضي بالانتماء إلى سيد عظيم والاحتماء بحماه. والرق في ذاته أنواع. وظل يخف بالتدريج خلال الزمن حتى فقد في فرنسا صفته السياسية وصار مرجع الأمر إلى الملك ولم يبق منه للإشراف غير الميزة الاجتماعية. ولكنهم ظلوا منطلقين في الظلم والإجحاف فاهتاج الشعب غير مرة وهم يقمعون الهياج بقسوة متناهية. ثم زاد واتسع في المرة الأخيرة ورأى العالم الطبقات الاجتماعية تمتزج وتتساوى على دويّ سقوط العروش، وانهيار جدران البستيل، وقصل أعناق الملوك في ذلك الزلزال الهائل المدعو بالثورة الفرنساوية.

قضت الثورة على الاسترقاق الذي كان أُلغي قبلئذٍ في انجلترا وظل يُحذَف في دولة بعد دولة، وفي مستعمرة تلو مستعمرة أبان القرن المنصرم. واستفادت أمريكا بدروس العالم القديم واختبارها الشخصي، فألغته الولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ والبرازيل سنة ١٨٨٨. وهتف الكتاب والخطباء أن لطخة العار غُسِلتْ عن جبهة الإنسانية بفضل الثورة الفرنساوية وهمة مفكري انجلترا.

يخيل إلينا نحن أبناء اليوم أن امتلاك الإنسان للإنسان من خصائص الزمن الخرافي، مع إننا نعلم أن النفوس كانت تحصى في عقود البيع بلبنان مع الغنم والخيل وآلات الفلاحة منذ عهد قريب. وأن دولة المماليك المؤلفة من عبيد الأمس ارتفعت إلى أوج الحكم فكان لها جيش من العبيد الغرباء. ثم جاء نابليون الشرق محمد علي باشا فغلبها على أمرها، ونظم جيشاً كبيراً منه فرقة أو فرق بأكملها من السود النوبيين. وكادت المتاجرة بزنوج أفريقية تشوّه جيلنا وهي من أفظع

أنواع الاستعباد إذ لا أسر، ولا دين، ولا جريمة تبررها، وما هي غير اقتناص البشر للبشر طمعاً بالمال. لولا أن مطاردتها واكتساحها من أشرف ما تفاخر به بريطانيا العظمى.

ترى ألم يكن للنصرانية والإسلام من أثر في القلوب لتحملها على الرحمة والعطف؟ لا شك في تأثير الدين أياً كان، وإذا أُحصيت العوامل الكبرى كان الدين في مقدمتها لتكييف النفوس. وقد انتقى السيد المسيح تلاميذه من الخاملين ومضى ينادي بالمساواة والغفران وحبّ الأعداء لأن الجميع أبناء الله يدعون. وعزّز مذهبه العظيم بمثله في حياته الطاهرة. وصار النصارى يرددون هذا النداء الجميل في الصلوات والاحتفالات تفعل فعله وملأ القلوب أملاً وتعزية. على أن الدين المسيحي أقرب إلى النظريات وعلى نقيضه الإسلام فإنه نظري وعمليٌّ معاً. وجد العبودية عند شعوب سبقته فاقتبلها ولكنه لطفها أيما تلطيف. وعلى مقربة من تعاليمه العالية ونصائحه الحكيمة أوصى باليتيم والضعيف والرقيق وكان الطائع الأول النبي العربي ذاته الذي بكى عبده الميت كما يبكي الكريم صديقاً عزيزاً. فكانت حالة العبد في دين محمد من أحسن حالات أمثاله. أما الإعتاق والدعوة إليه فمن أمجد صفحات تاريخ الإسلام.

يرمز المصوّرون إلى العبودية برسم رجل بائس رسف في قيوده ولو أنصفوا ما كان غير المرأة رمزاً. الرجل عبدٌ مرة وهي عبدة مرات. قيمة الرجل في استقلاله النفسي وطموحه إلى بعيد الغايات. والمرأة إن هي أبدت ميلاً إلى الانعتاق من الأوهام القديمة والتحرّر من العادات المتحجرة نظر إليها كفرد شاذ أو كخيال في دوائر الرؤيا، ذلك لأنهم اعتادوا استعبادها ليس بالجور والضغط والتعذيب فقط، بل باللطف والتدليل والتحبُّب. وإلا فماذا تعني هذه الحلى وهذه الجواهر؟ بل ماذا

يعني تغني الشعراء بجمال الوجه وملاحة القوام؟ النساء المسكينات يتهْن دلالاً أن يكنّ محبوبات لجمالهنّ، ولو تفكرن قليلاً لأدركن ما في ذلك من معنى التحقير لجميع قواهن، حتى الأنثوية نفسها، ولكفى أن يتقدم إليهنّ رجل بامتداح حسنهن وحده ليرفضنه زوجاً. وهؤلاء هن اللائي بعد أن يُشترين بالمال والحلى والتملُّق ـ وقد عنى سكوتهن قبول نير العبودية والرضى عنه ـ ينبرين فجأة مطالبات بحقوقهن مناديات بالاستقلال والتحرير. وأنا التي أكتب هذا يشوك الآن ساعدي سوار دارَ حوله فأنظر إليه وأضحك ولا أزيحه عني. لقد توارثت النساء حمل القيود في صورة الحلى حتى عشقتها، إن هي لم تثقل حركتهن لغرض ما وضعن مكانها ما يشير إليها لغير سبب.

تشكون من زواج هذا العصر وتستصغرون الذي يتزوج البائنة ويقبل صاحبتها معها بدلاً من أن يتزوج المرأة ويقبل معها بائنتها. ولكن أتظنونه أفظع من زواج يؤدي فيه الرجل مهراً؟ إذا ساء شراء المرأة زوجها فكيف يحسن ابتياع الرجل زوجته؛ الزواج عقد اجتماعي يأتي فيه الشريكان برأس مال حسيّ ومعنوي: المال والكفاءة الشخصية: فالمال يجعل المرأة مثيلة الرجل، والكفاءة الشخصية تؤهلها لأن تكون زوجة معتبرة وأُماً محبوبة. تزعمون، أنتم النظريين المتطرفين، أن صفاتها تكفي لإسعاد رجل نشيط يتكل على جدّه واجتهاده؟ ألا فادخلوا هيكل أسرار العائلة وقفوا على ما هناك من نكد وويلات أصلها فقر عائلة المرأة! لا أنكر أن الكفاءة الشخصية تفوق المال أهمية، وأن المال لا يدوم إلا حيث تكون الكفاءة، ولكن أواثقون أنتم من أن كلَ امرأة تنصف زوجها ولا تختلس نتاج جهوده أو بعضه؟ أبيُّ النفس يخاف أن تستعبده المرأة الغنية، فهل هو للفقيرة أقل استعباداً؟ وعلى كلٍّ فعبيد اليوم كعبيد الأمس ليس أمامهم للتحّرير من

سبيل غير ذينك السبيلين القبلين: المال والكفاءة الشخصية.

* * *

هذه هي الخطوط الكبرى في خريطة العبودية التاريخية، فرغت من تعدادها بانشراح من نفذ من تحت جبل ووقف يتمتع بمحاسن الرياض.

لقد اتفقوا على أن العبودية كانت وانقضت. وأظنني كتبت منذ هنيهة أن عصرنا يفخر بإلغاء متاجرة الإنسان بالإنسان. وقد استجمعت فكري للمرة الأخيرة قبل أن ألقي القلم جانباً فتململت في حافظتي جميع معاني الأسى ورأيتُ أشباح الذل متجمهرة في رحاب خيالي. كشّرتْ عن أنيابها تهدَّدني ومدتْ بمخالبها نحوي لتفترسني. جيشٍ عرمرم من أرواح العبودية والرق أخذ يصفق بأجنحته السوداء صارخاً «نحن أحياء نتألم فكيف تذكرين الموتى وتنسيننا»؟ فدنوت من جماعة وقلت: «من أنتم»؟ فصاحوا «نحن نزلاء الليمانات وضحايا الأشغال الشاقة. حجار الصوان تحني ظهورنا وأزير السياط يمزق أجسامنا. ما نحن إلا عبيد أسبارطة». قلت «وكيف يكفي الاجتماع أبناءه شركم؟ لقد سرتم في وسطه فكانت الجرائم منكم بعداد الخطوات» فتنهدوا وقالوا وتنهدهم وكلامهم مقذوفات براكين «ما نحن إلا عبيد إسبارطة».

وسرتُ نحو جمع آخر انحنى يشتغل والعرق يقطر من ذرات وجهه فصرح «نحن الشعوب المغلوبة وما غرامة الحرب إلا رق القرون الوسطى» فقلت «وهل من وسيلة أخرى ليستعيض الظافرون عما خسروه من مال ورجال» فهزوا أكتافهم وانحنوا على الأرض متظلمين «ما هذا إلا رق القرون الوسطى».

وتحولتُ إلى جهة أخرى، وإلى أخرى وإلى أخرى، وإن

توجهتُ لاقيتُ أقواماً ينبعث من صدورها التظلم والعويل وتخيم فوقها الأجنحة السوداء. رجال ونساء، شيوخ وأطفال، مثرون ومعدمون، عبيد الوراثة، وعبيد العاهات، وعبيد الأمراض، وعبيد الجهل، وعبيد الأهام، وعبيد الطمع، وعبيد الحاجة، وعبيد الحياء الإنساني، وعبيد الغرور، وعبيد الكذب، وعبيد الحسد، وعبيد الأهل، وعبيد الأبناء، وعبيد الغرباء، يزحفون جميعاً من كل ناحية كالجحافل الجرارة وهدير شكواهم كهدير العباب المتلاطم. فصرختُ جزعاً «من أنتم، من أنتم»؟ والعبيد، جميع العبيد، عبيد الماضي والحاضر والمستقبل، أجابوا كجوق رهيب «نحن العبودية الدائمة»! قلت «كلا، كلا! لقد أُلغيت العبودية وأنتم أحراره إرفعوا أيديكم لا سلاسل فيها: حرّكوا أقدامكم لا قيود تثقلها! فقالوا: «السلاسل والقيود أقل رموز العبودية هولاً. القيود في دمائنا وأهلنا وأوطاننا. القيود في رغباتنا وحاجاتنا. القيود في بشريتنا» فصرختُ بملء صوتي «أقول لكم أنتم أحرار ولا عبودية في القرن العشرين»؟ فقالوا: «إذا مُحِيَتْ من العبودية صورة رُسمت أخرى، لأن أصل العبودية باق على كر الدهور. نحن العبودية الدائمة. نحن أودية الحياة المجوفة عند أقدام الرواسي».

واختفت الجماهير في لحظة فوجدتني مُقلبةً صحائف هذا الفصل وقد وقفتُ أقرأ كلمات الاستهلال «من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض... ما أقامت ارتفاعاً إلا أوسعت تخومه تجويفاً...».

المصادر والمراجع

١ ـ مي زيادة في حياتها وآثارها: وداد السكاكيني.

٢ ـ مي زيادة والتوعية الاجتماعية: رسالة ماجستير وفيقة محمود الحايك / ١٩٨٣.

٣ ـ مي أديبة الشرق والعروبة / محمد حسن عالم الكتب القاهرة.

٤ ـ مي زيادة التوهج والأفول/ روز غريب مؤسسة نوفل ـ بيروت.

٥ ـ مي زيادة في حياتها وأدبها جميل جبر / بيروت المطبعة الكاثوليكية.

٦ ـ مؤلفات مي زيادة.

٧ ـ ابتسامات ودموع (مخطوطة لمي زيادة) بخطها الأصلي.

الفهرس

لا شكَّ أنّ القارىء العربيّ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الاطِّلاع على تراثه الفكريِّ العظيم المتمثِّل بالأدب والتاريخ والفلسفة والفقه وعلم الكلام وغيرِ ذلك من ميادين الثقافة والمعرفة.

وبما أن تحصيل هذه المعرفة الموسوعية المتكاملة لا يكادُ يُتاحُ إلّا لأفراد قلائل من ذوي العقول المتميِّزة والبصائر المتوقِّدة، كان لا بدَّ لنا من تقديم هذا التراث بشكلٍ مختصرٍ وجامعٍ في الوقت نفسهِ، بحيث يوافق هذا الإطارُ المقْتَرَحُ أكثريةَ القرّاء العرب، وخاصة طلابَ المراحل الثانوية والجامعية. فكانت هذه السلسلةُ عن أعلام الأدب من نثر وشعر، تولّى كتابتها مجموعةٌ من الاختصاصيين الذين تحرّوا فيها السلاسةَ في الأسلوب والعمقَ في التحليل والاختصارَ في المعلومات، بما يحقّق الهدفَ المنشودَ من إصدارها.

كما نشير إلى أننا ـ بالإضافة إلى هذه السلسلة التي بين يديك عن أعلام الأدباء والشعراء ـ أصدرنا، وسنصدر تباعاً إن شاء الله مجموعاتٍ أخرى عن أعلام الفكر العربي والغربي في مختلف الميادين المعرفية، بنفس الأسلوب والمنهج اللذين اتبعناهما في إصدار هذه السلسلة. والله من وراء القصد.